

عبد دخاص
مناصبه مؤثر أربعين سنة على تأسيس الكلية

عجلة

كلية الآداب
والعلوم الإنسانية

الرباط

جامعة محمد الخامس

عدد مزدوج

22 - 21

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
مجلة مُحَكَّمة تصدر مرّة كل سنة

المدير : عبد الواحد بن داود

هيئة التحرير :

عمر أفلا

أحمد الـيـوري	محمد منيار
المختار الهـرّاس	محمد مفتاح

تعبّر الأفكار الواردة في المقالات عن آراء أصحابها

المصطلحات التعليمية في الأندلس (خلال خمسة قرون)

محمد فارس الجميل

جامعة الملك سعود — الرياض

المقدمة :

تفرد تاريخ الأندلس الحضاري ببعض الخصائص التي جعلته يختلف بعض الشيء عن تاريخ المشرق. ومن أبرز الجوانب الحضارية ذات الخصوصية في التاريخ الأندلسي، الجانب العلمي والثقافي. وقد كتب كثير في هذه الموضوعات إلا أنه لا يزال هناك الكثير من القضايا التي لم يتطرق لها الدارسون، وهي في نظر الباحث جديرة بالدراسة، ومنها على سبيل المثال : المصطلحات التعليمية في الأندلس.

إننا نجهل كثيراً من تلك المصطلحات واستخداماتها، ونجهل كذلك زمن ظهورها على مسرح النشاط العلمي والثقافي السائد في تلك الفترة. إن الدارس في التاريخ الأندلسي كثيراً ما يصادف مصطلحات مثل : «أدب بالقرآن» أو «كان مؤدباً بالقرآن» أو «أدب بالعربية» أو «كان مؤدباً بالعربية» أو «أدب بالحساب» أو «القول كذلك : «علم بالقرآن» و«معلماً بالقرآن» أو «كان يعلم بالقرآن» و«علم بالعربية» و«كان معلماً بالعربية» أو «كان يعلم بالعربية واللغة والشعر» والقول أيضاً «أسمع الحديث» أو «روى الحديث».

وكذلك الأمر بالنسبة للإقراء، فكثيراً ما نعثر على تعبير «أقرأ القرآن» و«أقرأ العربية والآداب» ونلاحظ أيضاً شيوع مصطلح «درس» كالقول مثلاً : «درس الفقه» و«درس العربية» و«درس علوم اللسان» أو «درس العربية والآداب» والقول أيضاً : «فلان المكتب» أو «أكتب القرآن» وهكذا.

إن أكثر هذه المصطلحات مفقود من مصادر تراجم المشاركة، بينما هي علامة بارزة في التراجم الأندلسية.

لهذا، فإن الدراسة الحالية تهدف إلى التعرف على تلك المصطلحات ومدى شيوعها في حياة الأندلس العلمية والثقافية. ولزيادة التعريف بها وإيضاحها، يلزم التعريف ببعض من مارسوا النشاط التعليمي في الأندلس، وذلك من خلال الوظائف التعليمية التي كانت مزدهرة آنذاك.

وستشمل هذه الدراسة خمسة قرون من تاريخ الأندلس، ابتداءً بالقرن الثالث الهجري، حين ولاية عبد الرحمن الحكم الأوسط (206هـ)، وهو العصر الذي بدأت فيه مصطلحات التعليم بالظهور بصورة واضحة، وانتهاءً بمنتصف القرن الثامن الهجري، الذي ضعف فيه الوجود العربي المؤثر في الأندلس، حيث بقي محصوراً في مملكة غرناطة وما حولها، مما نتج عنه هجرة الكثير من رجال العلم وطلابه الأندلسيين إلى المغرب الأقصى وبقية مناطق الشمال الإفريقي.

أما الوظائف التعليمية فهي :

(1) التأديب (2) الإسماع (3) الإقراء (4) التدريس (5) التعليم (6) التكتيب.
وستتناول بالتفصيل كل وظيفة من هذه الوظائف وما يندرج تحتها من مصطلحات تعليمية.

أولاً : التأديب :

«الأدب، الذي يتأدب به الأديب من الناس، سمي أدبا لأنه يأدب الناس [الذين يتعلمونه] إلى المحامد وينهاهم عن المقابح...»⁽¹⁾.
والأدب «أدب النفس والدرس. والأدب، الظرف وحسن التناول... وأدبه فتأدب : علّمه»⁽²⁾.

(1) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون وآخرين، القاهرة : الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1964-1975م، 14/209.

(2) جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب (بيروت : دار صادر، د:ت)، 1/206، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيظ، الطبعة الأولى (بيروت : مؤسسة الرسالة، 1406هـ)، ص 75.

والذين اشتغلوا بالتأديب في الأندلس كثيرون وستقتصر على الإشارة إلى بعضهم، فمن الذين اشتهروا بالتأديب : عُبادل بن عمر (ت 339هـ) من أهل إستجة⁽³⁾، «وكان يؤدب بالقرآن»⁽⁴⁾، وأحمد بن قزمان المؤدب (ت 377هـ)، من أهل قرطبة، حافظا للفقه على مذهب مالك، «وكان يؤدّب بالقرآن»⁽⁵⁾. ومن قرطبة أيضا محمد بن خليفة البلوي المؤدب (ت 392هـ)، رحل حاجا وسمع من بعض العلماء ثم انصرف إلى الأندلس «فلزم التأديب بالقرآن»⁽⁶⁾. ومن أهل بجّانة⁽⁷⁾ محمد بن أحمد العيشي المعروف بابن الخلاص (ت 394هـ)، كان حافظا للحديث «وأدب بالقرآن»⁽⁸⁾. ومحمد بن سعيد الأموي (ت 429هـ) من أهل قرطبة، كان «يؤدب بالقرآن» وكانت عنايته بنقل العلم عظيمة، ونسخ أكثر روايته بخطه⁽⁹⁾.

وتشير بعض المصادر إلى أن مصطلح التأديب لم يكن مقتصرًا على القرآن الكريم، بل تعداه إلى بعض العلوم الأخرى، حيث اشتهر عدد من العلماء الذين مارسوا عملية التأديب في أكثر من علم، منهم :

حسين بن فتح، من سكان إشبيلية، وكان «مؤدبا بالقرآن» وله بصر بالغريب

= وانظر : إسماعيل بن حماد الجوهري، **الصحاح**، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الثالثة (بيروت : دار العلم للملايين، 1404هـ)، 86/1.

(3) إستجة (Ecija) بين القبلية والمغرب من قرطبة، بينهما مرحلة كاملة وهي مدينة قديمة.. انظر : محمد بن عبد المنعم الحميري، **الروض العطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس (بيروت : مكتبة لبنان، 1975م) ص 53.

(4) عبد الله بن محمد الأزدي المعروف بابن الفرضي، **تاريخ علماء الأندلس**، تحقيق إبراهيم الأبياري، الطبعة الأولى (بيروت : دار الكتاب اللبناني 1413-1404هـ)، 571/2.

(5) ابن الفرضي، 114/1.

(6) ابن الفرضي، 790/2.

(7) بجّانة (Pechina) «بفتح الباء وبعدها جيم مفتوحة مشددة بعدها ألف وبعدها ألف نون، مدينة بالأندلس كانت في قديم الدهر من أشرف قرى أرض اليمن، وإنما سمي الإقليم أرش اليمن لأن بني أمية لما دخلوا الأندلس أنزلوا بني سراج القضاة في هذا الإقليم... الحميري، ص ص 79-80.

(8) ابن الفرضي، 795/2.

(9) خلف بن عبد الملك بن بشكوال، **الصلة** (القاهرة : الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م)، 172-171/2.

والنحو والشعر⁽¹⁰⁾، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله المكفوف المعروف بابن الأصفر، «كان مؤدبا بالقرآن والشعر والحديث والنحو»⁽¹¹⁾، وأبو محمد فرح بن قزلمان، «كان مؤدبا بالعربية، وكان الأغلب عليه علم النجم»⁽¹²⁾، وعثمان أبو عمرو الموروري، «كان مؤدبا بالعربية» في حاضرة إشبيلية⁽¹³⁾، وكذلك سعيد بن قدامة البلوطي «كان مؤدبا عالما بالعربية» وكان يميل إلى مذهب الكوفيين⁽¹⁴⁾، وأبو القاسم عبد الوهاب بن يونس (توفي بعد 300هـ)، «كان مؤدبا بالعربية جيد القياس فيها»⁽¹⁵⁾.

أما محمد بن سليمان الأنصاري النحوي (ت 326هـ)، فكان «مؤدبا بالنحو وكان مقرئا»⁽¹⁶⁾، وكذلك عبد الله بن حرب الكلبي النحوي (ت 334هـ) من أهل قرطبة، «كان مؤدبا بالعربية»⁽¹⁷⁾ ومن أهل قرطبة أيضا سعيد بن قدامة بن عبد الوارث القيسي (ت 348هـ) «كان مؤدب عربية وكتب عنه»⁽¹⁸⁾، وعبد الله بن تمام بن أزهر الكندي، من أهل قرطبة (ت 373هـ)، رحل حاجا وحاول هناك علم الحساب والفرض، «وكان مؤدبا بالحساب»⁽¹⁹⁾. وحديث وكتب عنه، وكتب عنه ابن الفرضي. ومن أهل قرطبة، محمد بن مسعود الخطيب (ت 379هـ)، كان خطيبا نحويا شاعرا، «أدب بالعربية زمنا»، ثم صار يخطب بين يدي المستنصر بالله أمير المؤمنين⁽²⁰⁾. وولي القضاء ثم تولى الصلاة في جامع

(10) ابن الفرضي، 207/1.

(11) محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية (القاهرة: دار المعارف، د: ت)، ص 303.

(12) الزبيدي، ص 308.

(13) الزبيدي، ص 293.

(14) الزبيدي، ص 299.

(15) الزبيدي، ص 305.

(16) ابن الفرضي، 696/2-697.

(17) ابن الفرضي، 391/1.

(18) ابن الفرضي، 305/1.

(19) ابن الفرضي، 408/1.

(20) المستنصر بالله: هو أمير المؤمنين المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمن، حكم الأندلس خمس عشرة سنة وبضعة أشهر. (350-366هـ) انظر: ابن الفرضي، 31/1-32.

الزهراء⁽²¹⁾. ويظهر من هذا النص أن بعض المؤيدين لا يلبث طويلاً حتى يرتفع شأنه العلمي وتحسن حاله الاجتماعية فيتولى القضاء والصلاة في جامع مشهور كجامع مدينة الزهراء.

ومن قلعة أيوب⁽²²⁾ إبراهيم بن لب بن إدريس التجيبي (ت 454هـ) كان متقدماً في علم الفرائض والعدد والهندسة وكان له نفوذ في علم العربية وقد «أدب بها بطليطلة»⁽²³⁾. ومن أهل مرسية أحمد بن محمد بن صامت توفي بعد سنة 590هـ، «كان يؤدب بالقرآن، ويعلم بالحساب والعربية»، وقد حدث وأخذ عنه⁽²⁴⁾. أما أحمد بن عبد الله بن الحسن الأنصاري (ت 652هـ)، فكان ذا قدرات علمية كثيرة، أقرأ ببلده القرآن، ودرّس الفقه، وأسمع الحديث «وأدب بالعربية»⁽²⁵⁾. ويلاحظ في هذه الترجمة التأكيد على بعض المصطلحات كالقول: أقرأ القرآن، درّس الفقه، أسمع الحديث، وأدب بالعربية. وواضح من التفرقة في استخدام هذه المصطلحات أنه قد لا يكون من المناسب القول إن فلاناً أدب بالفقه أو أسمع العربية أو أقرأ الحديث.

ومن ذوي الكفاءات المتعددة كذلك، أبو الأصبع عثمان بن إبراهيم البرشقيري، كان عالماً بالعربية والحساب «مؤدباً بهما»، وكان حاذقاً بالنجامة، شاعراً صالح الشعر، وله تأليف في النحو⁽²⁶⁾. ومحمد بن عبدون الجبلي، إضافة إلى مهارته

(21) ابن الفرضي، 769/2.

(22) قلعة أيوب (Calt ayud) بالأندلس بالقرب من مدينة سالم، وهي مدينة رائعة البقعة وبها يصنع الغضار المذهب ويتجهز به إلى كل الجهات وهي قرية من مدينة دروكة، الحميري، ص 469.

(23) محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، الطبعة الأولى (القاهرة وبيروت: دار الكتاب المصري والكتاب اللبناني، 1410هـ)، ص ص 176-177.

(24) ابن الأبار، التكملة، ص ص 218-219.

(25) إبراهيم بن علي بن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق محمد الأحدي أبو النور (القاهرة: مكتبة دار القرآن، د:ت)، 203/1-205.

(26) الزبيدي، ص 308.

الطبية، «كان مؤدبا بالحساب والهندسة»، وله في التفسير كتاب حسن⁽²⁷⁾. أما أبو بهلول الخثعمي، فقد «كان مؤدبا بالنحو والشعر»، وكان حسن الخط جيد الضبط، سكن إشبيلية حتى وفاته⁽²⁸⁾.

هذه أمثلة قليلة تبرز لنا بوضوح هيمنة مصطلح التأديب وخاصة ما نُص عليه بعلم من العلوم كقولهم : يؤدب بالقرآن أو يؤدب بالعربية أو الحساب أو غيرها وقد ارتبطت عملية التأديب لدى الأندلسيين في غالب الأحوال بين المؤدب ووالد المتأدب أو ولي أمره، أي بين المعلم ووالد المتعلم بعقد ينظم العلاقة بين الطرفين، وما أكثر النصوص التي تشير إلى تلك العقود، وهي كثيرة الشيوع في الأندلس ونادرا ما نسمع عنها في بلاد المشرق، ومن الأمثلة على ذلك صيغة عقد بين طرفين على تعليم القرآن وهذا نصه :

«استأجر فلان بن فلان فلاناً المؤدب بكذا وكذا دينارا من صفة كذا، قبضها فلان المعلم ليعلم ابن فلان هذا، المسمى كذا جميع القرآن، وقد عرف فلان هذا المستأجر هذا الصبي، ووقف على مقدار نباهته»⁽²⁹⁾.
والذي يوحى لنا به هذا النص هو أن التأديب بالقرآن يقصد به تعليم القرآن،

(27) صاعد الأندلسي، **طبقات الأمم**، تحقيق حياة العيد بو علوان، الطبعة الأولى (بيروت : دار الطليعة، 1985م) ص ص 191-192، سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جليجل، **طبقات الأطباء والحكماء** ويليه **تاريخ الأطباء والفلاسفة**، تأليف إسحاق بن حنين، تحقيق فؤاد سيد، الطبعة الثانية (بيروت : مؤسسة الرسالة، 1405هـ)، ص 115.

(28) الزبيدي، ص 292.

(29) خوليان ريبيرا، **التربية الإسلامية في الأندلس** : أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ترجمة الطاهر أحمد مكي، (القاهرة : دار المعارف، د:ت) ص 173.

لم يكن بإمكان الباحث استخدام الوثائق التي سبق وأن استخدمها خوليان ريبيرا في بحثه حيث أن بعضها لا يزال مخطوطا، أما المحقق منها مثل : الوثائق والسجلات لابن العطار فليس فيها ما يخدم الغرض ولو أن الدكتور محمد عبد الحميد عيسى صاحب كتاب : **تاريخ التعليم في الأندلس**، قد أشار في كتابه في أكثر من مناسبة إلى وثائق ابن العطار ولكن بعد الرجوع إليها تبين أنها لا تحوي شيئا ذا علاقة بمصطلحات التعليم أو أجور المعلمين.

انظر : محمد عبد الحميد عيسى، **تاريخ التعليم... حواشي الصفحات** : 478، 480، 482،

483.

وأن من يقوم بتعليم القرآن يدعى المؤدب. ويلاحظ في النص السابق أن مصطلحي المؤدب والمعلم استعمالاً ليؤدبا نفس الغرض وهو التعليم.

وجاء في صيغة عقد آخر ما نصه :

«وثيقة استئجار مؤدب عربية...»

استأجر فلان بن فلان فلان بن فلان المؤدب، لتعليم ابنه فلان سنة، أولها شهر كذا من سنة كذا، النحو، ويملي عليه الرسائل ومخاطبات البلغاء وتوقعات الأمراء، ويرويه من الشعر الجاهلي والإسلامي الشعر الحسن، السليم من وصف الخمر والحنا وقبيح الهجاء، بكذا وكذا، دفع فلان شطر هذه العقدة إلى المؤدب فلان، وقبضها منه، وأبرأه منها...»⁽³⁰⁾.

وهذا النص يكشف لنا جانبا من المنهج المتبع في التأديب في الأندلس آنذاك، كما يكشف لنا عن المعنى المقصود بمؤدب العربية ألا وهو الذي يقوم بتعليم الأدب العربي كما هو معروف لدينا اليوم. ويستفاد من الوثيقة السابقة أيضا أن ولي أمر التلميذ هو الذي يقوم في بعض الأحيان باختيار العلوم التي يرغب لابنه في تعلمها (!).

وهكذا يتبين لنا من النصوص السابقة معنى المصطلح التعليمي الأندلسي، كالقول : يؤدب بالقرآن أو يؤدب بالحساب أو يؤدب بالعربية أو مؤدب عربية فالمقصود من هذا كله فيما يظهر التعليم، تعليم القرآن أو تعليم العربية، وقد أشرنا آنفا إلى طرف من منهجها.

من النصوص الأخيرة يتضح للقارئ أن مصطلح التأديب يشمل كذلك العلوم العقلية كالحساب والهندسة تماما كما يشمل العلوم النقلية كالنحو والشعر وغير ذلك من العلوم.

والأمر الجدير بالإيضاح هو أن تواريخ وفيات بعض من ذكروا هنا ممن اشتغلوا بالتأديب في علم من العلوم تدل على أن هذا المصطلح قد بدأ بالظهور في الأندلس

(30) ريبيرا، التربية... ص 173. وقد كتب ابن الحاج فصلا قيما عن المؤدب وتأديب الصبيان في كتابه النفيس : المدخل، انظر : أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الشهير بابن الحاج، المدخل (د: م، دار الفكر، 1401هـ) 334-305/2.

ربما في القرن الثالث الهجري تقريبا واستمر في الاستخدام جنبا إلى جنب مع المصطلحات الأخيرة التي سيشملها البحث.

ومن الملاحظ أنه منذ أوائل القرن السادس الهجري أخذ مصطلح التأديب في الأندلس يعني التعليم على إطلاقه كالقول : أن فلاناً تأدب بفلان، وقد جاء في أحد مصادر تلك الفترة أن أبا عبد الله بن سعيد الداني، روى عن أحمد بن خلف اليحصبي (ت بعد 522هـ) «وتأدب به في الحساب»⁽³¹⁾ وهذا يعني أنه تعلم على يديه علم الحساب. وأن أحمد بن علي الأنصاري (ت 645هـ) من مالقة تأدب بأبي عبد الله بن أيوب بن نوح في الكثير من النحو واللغات والآداب والأشعار ودواوين علوم القرآن⁽³²⁾ أما علي بن أحمد بن يوسف، فقد روى عن أبي عبد الله حميد وتأدب به في «كتاب سيبويه»⁽³³⁾.

وفي نفس هذه الفترة أي القرن السادس الهجري يلاحظ التلازم بين مصطلحي (تأدب وتفقه) فإن محمد بن سعادة الأنصاري من بلنسية (ت 531هـ) تأدب في العربية بأبي العباس الكفيف وتفقه بأبي الوليد الوقشي⁽³⁴⁾. وأن عبد الله بن خلف بن فرقد القرشي (ت 576هـ) من إشبيلية تفقه بأبوي عبد الله بن الحاج وابن المناصف، وتأدب بأبي الوليد مالك العتبي⁽³⁵⁾ ومحمد بن منذر الأزدي من إشبيلية (ت 615هـ) تفقه بالزاهد أبي عبد الله بن أحمد بن المجاهد وتأدب بأبي إسحاق بن محمد بن ملكون⁽³⁶⁾.

(31) محمد بن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة، تحقيق محمد بن شريفة (بيروت : دار الثقافة، د.ت)، السفر الأول، القسم الأول والثاني، السفر الأول، القسم الأول، 105/1.

(32) المراكشي، الذيل والتكملة، 321/1-322.

(33) المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الخامس، تحقيق إحسان عباس (بيروت : دار الثقافة، د.ت) 1/5 ص 171.

(34) المراكشي، الذيل والتكملة، السفر السادس تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى (بيروت : دار الثقافة، 1973م) 201/6.

(35) المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الرابع، تحقيق إحسان عباس (بيروت : دار الثقافة، د.ت)، 223/4-224.

(36) المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الأول، القسم الأول، 321/1-322.

والذين نذروا أنفسهم للتأديب بالأندلس سواء بأجر أو احتساباً من الكثرة
بمكان وليس من الضروري تقديم ثبت كامل بأسمائهم، لذلك فسيكتفى هنا
بالإشارة إلى بعضهم للتدليل على رواج صناعة التأديب في الأندلس خلال
عصورها الزاهرة.

وقد صُنف المؤدبون إلى مجموعتين رئيسيتين هما :
1 — مؤدبو الخاصة، 2 — مؤدبو العامة والكتاتيب.

1 — مؤدبو الخاصة :

المقصود بمؤدبي الخاصة المؤدبون الذين تولوا تعليم أبناء الطبقة الحاكمة ومن
في حكمهم من أبناء القادة ورجال الإدارة، ويأتي على رأس هؤلاء المؤدبين :
سوار بن طارق مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية، حج ودخل البصرة، ولقي
الأصمعي ونظراءه، وانصرف إلى الأندلس، وأدب الحكم (ت 206هـ)⁽³⁷⁾.
ومحمد بن عبد الله، والد مضر بن محمد الخازن، من أهل قرطبة، رحل إلى المشرق
وقرأ القرآن على عثمان بن سعيد المعروف بـوَرش، واستأدبه الحكم بن هشام لبنيه،
وكان عالماً بالقرآن بصيراً بالعربية⁽³⁸⁾. ومن أهل قرطبة كذلك عثمان بن المثني،
رحل إلى المشرق واتصل بعلماء الحديث والعربية وقرأ على أبي تمام حبيب بن
أوس ديوان شعره وأدخله الأندلس رواية عنه، وأدب أولاد الإمام عبد الرحمن
ابن الحكم (ت 238هـ)، وأولاد محمد [بن عبد الرحمن] المتوفى سنة 273هـ⁽³⁹⁾.
وهشام بن الوليد الغافقي (ت 317هـ)، من أهل قرطبة، كان عروضياً نحويًا،
وأدب أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد (ت 366هـ)⁽⁴⁰⁾. ومن الذين كان لهم
شرف تأديب أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر، محمد بن محمد ابن أرقم، وكان
من أهل العلم بالعربية واللغة والكلام في معاني الشعر، وكان أبوه يؤدب أبناء

(37) الزبيدي، ص 257، أحمد بن محمد المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق
إحسان عباس (بيروت : دار صادر، 1388هـ)، 46/2.

(38) ابن الفرضي، 634/2.

(39) ابن الفرضي، 513/2.

(40) الزبيدي، ص 284، ابن الفرضي، 891/2.

الخلفاء⁽⁴¹⁾. ومن أسهم في تأديب أبناء أمير المؤمنين الناصر لدين الله، درود، عبد الله بن سليمان بن المنذر المكفوف (ت 324هـ)، وكان له حظ جزيل من العربية ويقرض الشعر ويمدح الملوك⁽⁴²⁾. وكذلك عثمان بن نصر بن عبد الله المصحفي المؤدب (ت 325هـ) من أهل قرطبة أدب المستنصر بالله، وكان ذا سمع وعدالة⁽⁴³⁾. ومن أدب أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله، محمد بن إسماعيل النحوي المعروف بالحكيم (ت 331هـ)، من أهل قرطبة، أخذ الحديث عن كبار المحدثين بالأندلس، وكان عالما بالنحو والحساب، دقيق النظر⁽⁴⁴⁾. ومن اشتغل بالتأديب لدى الأسرة الحاكمة محمد بن يحيى الرباحي (ت 358هـ)، كان حاذقا بعلم العربية، دقيق النظر فيها، رحل إلى المشرق، ثم عاد إلى قرطبة ولزم التأديب بها في داره فأقبل الناس عليه ثم استأدبه أمير المؤمنين الناصر لولده المغيرة، ثم خدم أمير المؤمنين المستنصر ربما في خزانة كتبه حيث كان يشتغل لديه «في مقابلة الدواوين والنظر فيها...»⁽⁴⁵⁾. ومن استأدبه الناصر لدين الله لابنه المغيرة، أصبغ المؤدب، من أهل الحذق بالعربية والعلم بمعاني الشعر، وقد أحمد في تأديبه⁽⁴⁶⁾.

ومن إشبيلية محمد بن حسن الزبيدي (ت 379هـ)، سكن قرطبة، ونال بها جاها عريضا، واستأدبه المستنصر بالله لابنه هشام⁽⁴⁷⁾ (ت 403هـ) وقدمه لأحكام القضاء بموضعه، ثم قدمه إلى خطة الشرطة⁽⁴⁸⁾. ومرة أخرى يتبين لنا

(41) الزبيدي، ص 282-284.

(42) الزبيدي، ص 298.

(43) ابن الفرضي، 517/2، انظر : ابن الأبار، الحلة السيرة، تحقيق حسين مؤنس، الطبعة الأولى، (د:م، دار الكتاب العربي، 1963م)، ص ص 257-259.

(44) ابن الفرضي، 707/2.

(45) الزبيدي، ص ص 310-314.

(46) الزبيدي، ص 305.

(47) ذكر محمد أبو الفضل إبراهيم في مقدمة تحقيقه لطبقات النحويين واللغويين للزبيدي : أن الحكم المستنصر استدعى أبا بكر الزبيدي من إشبيلية لتأديب ولي عهده المستنصر، ص 3، ولاشك أن هذا سهو وقع فيه الأستاذ أبو الفضل وإلا فهو يعرف أن ولي عهد الحكم هو الأمير هشام.

(48) ابن الفرضي، 768/2، المقرئ، نفح... 74/3-75.

أن المؤدب الطموح قد تدفعه مؤهلاته العلمية إلى تولي بعض المناصب الهامة في الدولة كولاية القضاء أو الشرطة، وليس بالضرورة أن يبقى أبداً مرتبطاً بالتأديب. ومن تولى تأديب الخاصة والعامة أحمد بن نافع من قرطبة : كان أديباً متفنناً في علوم اللسان العربي، أدب به طويلاً، للخاصة والعامة، ثم قصر على تأديب الوصفاء بالقصر⁽⁴⁹⁾، إن ظاهرة مؤدب وصفاء القصر تكاد تكون نادرة وقلما تشير إليها مصادر التاريخ الأندلسي.

وعلي بن محمد بن يوسف الفهمي، من قرطبة، لم يقتصر تأديبه على الرجال بل تعداه إلى النساء، فقد اتخذ المنصور عبد المؤمن بن علي (ت 558هـ) لتعليم أولاده وبناته، ونال من جراء ذلك جاها عريضاً وثروة طائلة⁽⁵⁰⁾. ومن الذين أدبوا النساء، محمد بن أحمد الأنصاري (ت 653هـ)، قال عنه المراكشي : «كان خاتمة المقرئين المجودين، ثابر على الإكتاب وتأديب النساء»⁽⁵¹⁾.

وبطبيعة الحال فإن التأديب في القصور في الأندلس لم يكن مقصوراً على أبناء الأسرة الأموية الحاكمة بل تعداه إلى طبقة الحاشية والوجهاء وأعيان المجتمع، فأصبح أبناءهم يتعلمون على يد مؤدب خاص أو معلم خاص.

ومن الذين اشتغلوا بالتأديب عند هذه الطبقة، أبو عمر يوسف البلوطي (ت 334هـ)، كان حافظاً للغة وذا حظ من العربية، وأدب عند الحديريين — إحدى الأسر الرفيعة بالأندلس — وكان يُقرأ عليه كتاب الأدب وكتاب يعقوب [بن السكيت] في المنطق ونحو ذلك من كتب اللغة⁽⁵²⁾. ومنهم أبو العباس وليد بن عيسى الطبيخي (ت 352هـ)، كان ذا علم باللغة والشعر وكان له حظ من علم العربية وتنافسه الملوك فلم يؤدب إلا عند الجلة وكان خيراً ديناً⁽⁵³⁾. وحسين بن الوليد بن نصر من أهل قرطبة، (ت 390هـ) كان نحويًا عالماً بالعربية، رحل إلى المشرق وأقام بمصر أعواماً، ثم انصرف إلى الأندلس

(49) المراكشي، الذيل والتكملة، 1/1، ص 543.

(50) المراكشي، الذيل والتكملة، 1/5، ص ص 399-400.

(51) المراكشي، الذيل والتكملة، 2/5، ص ص 588-589.

(52) الزبيدي، ص 298.

(53) الزبيدي، ص 304.

فاستأدبه المنصور [بن أبي عامر] (ت 393هـ) لبنيه وقربه من صحبته وكان شاعرا كثير المدح له، وله حظ في علم الكلام، وتوفي بطليطلة غازيا⁽⁵⁴⁾. ومحمد بن عطاء الله النحوي (ت 394هـ)، من أهل قرطبة، روى عن أبي بكر الزبيدي، صاحب طبقات النحويين واللغويين، ويظهر أن الزبيدي استأدبه لبنيه. وتوفي في إحدى الغزوات⁽⁵⁵⁾. وأحمد بن كوثر النحوي (توفي بعد 440هـ)، كان وقفا على سرقسطة ومدائن ثغرها، يتجول فيها ويعلم بها، وعنده تعلم الرؤساء بنو هود وكثير من أهل الثغر⁽⁵⁶⁾.

ومن إشبيلية، أحمد بن عبد الله بن محمد اليعمري المقرئ (ت 618هـ) أجاز له جماعة من أهل المشرق، وكان معنيا بالحديث دؤوبا على تقييده، ولقاء رواته، مشاركا في القراءات وغيرها واستأدبه بعض الأمراء لبنيه فأقرأهم القرآن والعربية⁽⁵⁷⁾.

من استقراء النصوص السابقة يظهر بوضوح أن أهم المؤهلات العلمية للمؤدب هي اللغة والشعر والأدب وفي بعض الأحيان يضاف إلى ذلك القرآن والحديث. ونختم هذا الجزء من الحديث عن مؤدبي الخاصة بنص يمكن أن يبين طريقة تأديب الأمراء ومعاملتهم لمؤدبيهم والجو العلمي الذي تهيأ لهم في تلك الفترة البعيدة من تاريخ التربية الإسلامية.

وصف مجلس التأديب (التعليم) الذي ضم ولي العهد الأمير أبا الوليد هشاما ومؤدبه الفقيه القسطلي أحمد بن محمد بن يوسف. قال أبو حيان :

فاختار الخليفة الحكم المستنصر الفقيه القسطلي، أحمد بن محمد بن يوسف، لتعليم ولده الأمير أبي الوليد هشام، وأحسن وصايته به، ورسم له في تعليمه وتدريبه رسوما أقاده عليها، ولم يعد عنها، نفع الله الولد بها. وكان قد أمر بتطرية الدار المعروفة بدار الملك بقصر الزهراء وتنجيدها، وإقامة كل ما يحتاج إلى إقامته وإعداده بها، وفي الطريق إليها، وفتح «باب غربي» في فصيل الفتيان بها، ليقرب

(54) ابن الفرضي، 208/1-209.

(55) ابن بشكوال، الصلة، 703/2.

(56) ابن الأبار، تكملة الصلة، ص 68.

(57) ابن الأبار، تكملة الصلة، ص 146.

عليه الخروج منها إلى هذه الدار، فيكون قعوده مع مؤدبه المذكور في المجلس الشرقي منها، بأيمن طائر. فقضى ذلك كله، وأحكم شأنه، فكان جلوس الأمير أبي الوليد مع معلمه في المجلس المذكور، من الدار المحدودة، يوم الخميس لخمس خلون من شهر رمضان (سنة إحدى وستين وثلاثمائة هجرية) واستخف الخليفة الحكم السرور بما هياه الله من ذلك، إلى أن برز إلى هذا المجلس نهاره هذا، لتقع عينه على ابنه، وتشاهد كيف صبره على الثقاف الذي لزه، فعان من ركانة مجلسه، وطلاقة وجهه، وإقباله على معلمه، وسكون جأشه ما قرت به عينه، وتجددت معه سرته، فبادر بإخراج مال واسع إلى صاحب الشرطة والسوق أحمد بن نصر بعينه، ليفرقه على الضعفاء والمساكين وأبناء السبيل، شكرًا لله على جليل منته عليه، في قرة عينه، وسلالة مجده، وعهد بعقد استثمار الفقيه أحمد بن يوسف معلم الأمير أبي الوليد هشام بإجراء الرزق عليه : الراتب والحملان والعلوفة، وعهد بإقامة علوفة للأمير أبي الوليد محدودة العدد، موصوفة الأطعمة، تقدم إليه وإلى من معه من صبيان كل يوم بموضع حضاره ذلك، وأمر بتقديم ذكاء، الوصيف الكبير الخصي، ناظرًا للأمير أبي الوليد، قيوما على جميع صبيان، متكفلا لشأنه⁽⁵⁸⁾.

2 — مؤدبو العامة والكتاتيب :

أ — مؤدبو العامة :

مؤدبو العامة والكتاتيب كثيرون، نشير إلى بعضهم :

أحمد بن إبراهيم بن باز، من أهل قرطبة، يعرف بابن القزاز، اشتهر اسمه بين المقرئين بقراءة ورش، وكان مؤدب جماعة، وإمام المسجد الجامع⁽⁵⁹⁾.

ومن أهل جيان⁽⁶⁰⁾ أحمد بن عبد الكريم، وينبئ بالرنوك، وكان له حظ من

(58) أبو مروان حيان بن خلف بن حيان، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن الحجري (بيروت : دار الثقافة، 1965م) ص ص 76-77.

(59) ابن الأبار، تكملة الصلة، ص ص 21-22.

(60) جيان (Jean) مدينة بالأندلس بينها وبين بياسة عشرون ميلا وهي كثيرة الخصب رخيصة الأسعار... وعلى ميل منها نهر بلون وهو نهر كبير عليه أرحاء كثيرة جدا... الحميري، ص ص 183-184.

علم العربية والشعر وكان يؤدب بالمدينة⁽⁶¹⁾. ومحمد بن إسماعيل، كان بصيرا باللغة والشعر وكان يؤدب بمسجد متعة⁽⁶²⁾ ومحمد بن سليمان الأنصاري الجرفي المكفوف (ت 326هـ) كان ذا فهم وعبادة، مجتهدا في التأديب، وأنجب على يديه خلق كثير وكان مقرئا⁽⁶³⁾، ومن أهل قرطبة، عبد الله بن يوسف الرهوني (ت 435هـ)، كان رجلا صالحا فاضلا لا يقف بباب أحد ولا يزول عن تأديبه بمسجد أبي خالد بالمدينة⁽⁶⁴⁾.

أما أبو عمر أحمد بن محمد بن هاشم (ت 345هـ)، فقد طلب النحو ليستعين به على علم الحديث والفقه فأدركه بعض الاختلال عند اتخاذ العيال، كما يذكر الزبيدي فجعل التأديب عوناً على ما لزم من مؤونتهم إلى أن توفي، وكان مهيباً في تأديبه، وكان يلقب بالقاضي لوقاره⁽⁶⁵⁾.

ب — مؤدبو الكتاب :

برغم كثرتهم في مدن الأندلس إلا أن المعلومات عنهم شحيحة جداً، وقد عثرنا على بعض الأسماء وهي :

أحمد بن شاب بن عيسى الأموي (ت 317هـ) من أهل قرطبة، «كان مؤدب كتاب» وكان زاهدا فاضلا⁽⁶⁶⁾، ومن أهل قرطبة كذلك سعيد بن سلمويه بن سيد أبيه (ت 380هـ)، كان «مؤدب كتاب» و«كان رجلا» صالحا، قرأ الناس عليه القرآن⁽⁶⁷⁾. وابن سلمويه هذا يظهر أنه لم يقتصر في خدمته لمجتمعه على تعليم الصبيان، بل تخطى ذلك إلى أن أصبح يقرئ الناس القرآن الكريم، فهو والحال كذلك يقدم خدمة مزدوجة للناس في قرطبة. وميكائيل بن هارون الباهلي،

(61) الزبيدي، ص 288.

(62) الزبيدي، ص 290.

(63) الزبيدي، ص 285.

(64) ابن بشكوال، الصلة، 414/2.

(65) الزبيدي، ص 599، ابن الفرضي، 95-96/1.

(66) ابن الفرضي، 77/1.

(67) ابن الفرضي، 311/1.

من أهل إستجة، كان «مؤدب كتاب»، موصوف بالورع والفضل⁽⁶⁸⁾.

وفي عهد الحكم المستنصر (ت 366هـ) يبدو أن الدولة في الأندلس قد شرعت في الإسهام بالتعليم العام، وخاصة في مراحل الأولية. ذكر أحد المصادر أن الحكم أمر بإنشاء سبعة وعشرين مكتبا في قرطبة يقوم المؤدبون فيها بتعليم أولاد الضعفاء والمساكين القرآن، وأجرى عليهم المرتبات⁽⁶⁹⁾.

وقد يكون المؤدب ذا ثقافة عريضة وعلم راسخ يؤهله للتقلب في عدة وظائف، فمثلا محمد بن علي بن محمد العبدري، من ماله (ت 750هـ) بغرناطة، أدب الصبيان مدة، وعقد الشروط أخرى، وكان يقرأ كتب الحديث والتفسير والرفائق للعامة بالمسجد الأعظم أكثر من ثلاثين سنة⁽⁷⁰⁾.

وكما أسلفنا سابقا فإن مؤدبي الكتاتيب في المدن الأندلسية لا يمكن أن يأتي عليهم الحصر، ويكفي أن نذكر أن الذين استشهدوا منهم في وقعة واحدة في ضواحي قرطبة سنة 403هـ زادوا على ستين مؤدبا «أعريت سقائفهم في غداة واحدة منهم، وتعطل صبيانهم لعدمهم»⁽⁷¹⁾.

وهذه العبارة الأخيرة نستنتج منها بعض الحقائق المتعلقة بالتأديب ورجاله في الأندلس وهي : أن المؤدبين في مدينة واحدة كقرطبة مثلا كان عددهم كبيرا وأن المؤدبين يتخذون سقائف (سقيفة) لتعليم الصبيان وليس في المساجد كما يظن البعض⁽⁷²⁾.

(68) ابن الفرضي، 864/2.

(69) محمد المراكشي ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س كولان وإ. ليفي بروفنسال، (ليدن : بريل، 1951م)، 240/2.

(70) لسان الدين محمد بن عبد الله السليماني ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، الطبعة (القاهرة) 97/3-103.

(71) انظر : علي بن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس (بيروت : 1979م) 1/1 : 44، وانظر كذلك إحسان عباس «التعليم في الأندلس حتى نهاية القرن الرابع الهجري» (عمان : منشورات المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، 1407هـ)، ص 60. بعد أن فرغت من كتابة هذا البحث أو كدت، عثرت على مقالة الدكتور إحسان عباس المشار إليها أعلاه.

(72) انظر : سعد بن عبد الله البشري، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، الطبعة الأولى (الرياض : مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1414هـ). قال المؤلف في صفحة 223 : «وكان بكثير من المساجد والجوامع مكاتب لتعليم الأطفال وتربيتهم...».

إنه من الصعوبة بمكان تحديد التاريخ الزمني الدقيق الذي برزت فيه ظاهرة التأديب عموماً في المجتمع الأندلسي، ولكن من الجائز الافتراض بأن ظاهرة المؤدب الخاص قد بدأت بالظهور في الأندلس منذ القرن الثاني الهجري وربما ارتبطت بسوار بن طارق حين تولى تأديب الحكم بن هشام (ت 206هـ) وقبل ختام هذا الجزء من البحث يمكن الافتراض في ضوء ما تقدم أن مؤدبي الخاصة علماء كبار، بينما مؤدبو العامة أقل منهم علماً، كذلك يذهب بنا الظن إلى أن العلماء من مؤدبي الخاصة لا يعلمون الكتابة والهجاء بل يتركون ذلك للطبقة الأقل علماً من المؤدبين.

ثانياً : الإسماع :

هناك طرق كثيرة في نقل الحديث وتحمله، ويأتي على رأسها السماع. «والسماع من لفظ الشيخ، وهو ينقسم إلى إملاء وتحديث من غير إملاء، وسواء كان من حفظه أو من كتابه. وهذا القسم أرفع الأقسام عند الجماهير»⁽⁷³⁾.

لقد كان الحديث النبوي الشريف من العلوم الأولى التي لاقت رواجاً منقطع النظير لدى الأندلسيين، ومن أجل جمع الحديث وسماعه من لدن شيوخه في المشرق الإسلامي شد طلاب العلم الأندلسيون الرحال نحو المشرق وطافوا بأرجائه وتعلمذوا على كبار محدثيه، ثم عادوا إلى الأندلس بذخيرة وافرة من الحديث النبوي وعلومه حيث صارت للبعض منهم مشيخة هذا العلم الشريف ومن ثم صارت الرحلة إليهم داخل الأندلس مثل : محمد بن وضاح وبقي بن مخلد، الذين قال عنهم ابن الفريسي : صارت بهم الأندلس دار حديث⁽⁷⁴⁾. ومن العلماء الذين صارت لهم الصدارة في الحديث في الأندلس، سعد بن معاذ بن أفنان، سمع بقرطبة، ورحل إلى المشرق، وكان حافظاً للمسائل مفتياً يتحلق إليه في المسجد الجامع ويسمع منه، توفي سنة (308هـ)⁽⁷⁵⁾. ومن طليطلة، داود بن هذيل بن منان،

(73) أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح، مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث (بيروت : دار الكتب العلمية، 1409هـ) ص 62.

(74) ابن الفريسي، 652/2.

(75) ابن الفريسي، 317/1-318.

رحل حاجا، فسمع بمكة، وسمع بمصر من أحمد بن عمرو البزاز وأحمد بن شعيب النسائي وعبد الله بن عبد السلام، راوية محمد بن يحيى النيسابوري، ثم انصرف إلى الأندلس وسكن قرطبة، وكان لا يجيب إلى الإسماع إلا قليلا، وكان صالحا ثقة، وسمع منه جماعة. توفي بقرطبة سنة (315هـ)⁽⁷⁶⁾. وزكريا بن خطاب بن إسماعيل الكلبي من تطيلة⁽⁷⁷⁾، رحل إلى المشرق، وسمع الحديث بمكة من جملة من مشاهير المحدثين، ثم انصرف إلى الأندلس، وكان الناس يرحلون إليه في تطيلة للسمع منه، واستقدمه المستنصر بالله وهو ولي عهد فسمع منه أكثر رواياته⁽⁷⁸⁾، وكان ثقة مأمونا وولي القضاء بموضعة سنة (337هـ)⁽⁷⁹⁾.

ومن قرطبة خالد بن سعد، كان إماما في الحديث، حافظا له بصيرا بعلمه، عالما بطرقه، مقدما على أهل وقته في ذلك. ينقل ابن الفرضي عن بعض أصحاب خالد أن الأمير المستنصر بالله كان يقول : «إذا فاخرنا أهل المشرق ببحي بن معين⁽⁸⁰⁾ فاخرناهم بخالد بن سعد»⁽⁸¹⁾.

ومن أهل قرطبة أيضا رشيد بن فتح الدجاج، رحل إلى المشرق حاجا، فسمع بمصر من كبار علماء الحديث فيها وسمع بمكة من محمد بن الحسين الآجري كثيرا من مؤلفاته، وكان معنيا بالحديث، جامعا للآثار.. وكان يأبى من الإسماع إلا في

(76) ابن الفرضي، 259/1.

(77) تطيلة (Tudela) مدينة بالأندلس في جوفي وشقة وبين الجوف والشرق من مدينة سرقسطة. الحميري، ص 133. ويذكر الحق في الحاشية : أن تطيلة اليوم في مقاطعة نافار (نبره) على بعد 78 كيلومترا إلى الشمال الغربي من سرقسطة.

(78) يرى الدكتور حسين مؤنس أنه بعد فتنة ابن مسرة (ت 319هـ) وضعت الدولة عينها على العلماء فلم تعد تسمع بعالم كبير في ناحية أخرى غير العاصمة إلا استقدمته إلى قرطبة ليكون هناك تحت رقابتها...

انظر : حسين مؤنس، شيوخ العصر في الأندلس، (القاهرة : الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1965م) ص ص 64-65.

(79) ابن الفرضي، 270/1-271.

(80) يحيى بن معين : الإمام الحافظ شيخ المحدثين، أبو زكريا، يحيى بن معين بن عون ابن زياد، عاش في بغداد وتوفي بالمدينة في طريقه إلى الحج سنة 233هـ. انظر : أحمد بن علي الخطب البغدادي، تاريخ بغداد (بيروت : دار الكتب العلمية، د:ت)، 177/14-187.

(81) ابن الفرضي، 239/1-240.

اليسير ممن يستحبه، وكتب عنه ابن الفرضي، وتوفي سنة (376هـ)⁽⁸²⁾. ومن قلعة أيوب، عبد الله بن محمد الثغري، رحل إلى المشرق سنة (350هـ) وسمع الحديث من الشيوخ في بغداد والبصرة والكوفة، ثم رحل إلى الشام وأخذ الحديث عن كبار المحدثين، ثم عاد إلى الأندلس واشتغل بالقضاء مدة قصيرة في أيام المستنصر بالله. وكان فقيها فاضلا دينيا ورعا، قرأ الناس عليه أكثر روايته. وتلمذ عليه ابن الفرضي وقال عنه : «وقرأت عليه علما كثيرا وأجاز لنا جميع روايته، وكان ثقة مأمونا... وكانت الرحلة إليه من جميع نواحي الثغر، نفع الله به علما كثيرا وتوفي سنة (383هـ)⁽⁸³⁾. وزكريا بن يحيى بن سعيد من أهل لاردة⁽⁸⁴⁾، حدث وسمع منه الناس كثيرا وكان يرحد إليه من كور الثغر للسمع منه⁽⁸⁵⁾. وهكذا بعد أن كثر المحدثون بالأندلس وبرز فيها بعض شيوخ الحديث الذين أصبحوا يضاهون محدثي المشاركة، أصبحت الرحلة بين الحواضر الأندلسية في سبيل دراسة الحديث بارزة متميزة، وليس من المستبعد أنها قد حدثت بعض الشيء من ذهاب طلاب الحديث الأندلسيين إلى المشرق.

وقبل ختام هذا الجزء من الدراسة لابد من الإشارة إلى أنه يلاحظ في بعض الأحيان نوع من الارتباط والتلازم بين إلقاء القرآن الكريم وإسماع الحديث. ولعل مرد ذلك إلى كونه من الشروط اللازمة في تكوين شخصية العالم المسلم، ومن الأمثلة على ذلك :

إبراهيم بن حسن القيسي (ت 600هـ) من أهل أشونة⁽⁸⁶⁾، وصاحب الصلاة والخطبة فيها، كان يقرأ القرآن ويسمع الحديث⁽⁸⁷⁾. وأحمد بن محمد بن إبراهيم الخشني (ت 611هـ)، من أهل قرطبة أقرأ القرآن بمسجد حبيب وأسمع

(82) ابن الفرضي، 267/1-268.

(83) ابن الفرضي، 419/1-420.

(84) لاردة (Lerida) في ثغر الأندلس الشرقي.. وهي بشرق مدينة وشقة، تشتهر بكثرة الكنان وجودته، الحميري، ص 507.

(85) ابن الفرضي، 273/1-274.

(86) أشونة (Osuna) من كور إستجة بالأندلس بينهما نصف يوم، وحصن أشونة ممدن كثير الساكن، الحميري، ص 60.

(87) ابن الأبار، التكملة، ص 210.

الحديث⁽⁸⁸⁾. وأحمد بن محمد العكي (ت 624هـ)، من أهل لوشة⁽⁸⁹⁾، أقرأ ببلده القرآن والعربية وأسمع الحديث⁽⁹⁰⁾ وكذلك إبراهيم بن محمد الأنصاري (ت 635هـ)، من أهل مرسية⁽⁹¹⁾، سكن المرية، أقرأ القرآن وأسمع الحديث وأخذ عنه⁽⁹²⁾.

وأحيانا يكون المحدث ضليعا في جملة من العلوم، فقد كان القاضي محمد بن يحيى الأشعري، من مالقة (ت 741هـ) إضافة إلى شغله منصب القضاء بغرناطة «كان ملازما للإقراء مع التعليم : درس العربية والأصول، والفقه وإقراء القرآن والحساب، والفرائض، وعقد مجالس الحديث شرحاً وسماعاً»⁽⁹³⁾.

ثالثاً : الإقراء :

يستخدم مصطلح الإقراء في حالين، إقراء القرآن الكريم وإقراء العربية وآدابها.

أ — إقراء القرآن الكريم :

«القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه، المكتوب بين دفتي المصحف، وهو متواتر بين الأمة. وقد رواه الصحابة عن رسول الله ﷺ بطرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها وتنوّل ذلك واشتهر إلى أن استقرت منها سبع قراءات تواتر نقلها أيضا بأدائها واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها من الجم الغفير فصارت هذه القراءات السبع أصولاً للقراءة»⁽⁹⁴⁾. ثم صار من يقرأ القرآن أو يقرئه يعرف بالمقرئ. قال السمعاني : «المقرئ : هذه النسبة إلى قراءة القرآن

(88) ابن الأبار، التكملة، ص 139.

(89) لوشة (Loja) بالأندلس من أقاليم البيرة، بينهما ثلاثون ميلاً، الحميري، ص 513.

(90) ابن الأبار، التكملة، ص 152.

(91) مرسية (Murcia) بالأندلس، وهي قاعدة تدمير، بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم واتخذت دار العمال وقرار القواد... ومرسية على نهر كبير وبها معادن فضة وكانت تصنع بها البسط الرفيعة، الحميري، ص 539.

(92) ابن الأبار، التكملة، ص 219.

(93) أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، الطبعة الخامسة (بيروت : دار الآفاق الجديدة، 1403هـ)، ص ص 141-147.

(94) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة (القاهرة : دار الشعب، د:ت) ص 402.

وإقراءه»⁽⁹⁵⁾.

والذين تصدوا لإقراء القرآن الكريم في الأندلس كثيرون، وليس الغرض من هذه الدراسة الوجيزة ذكر كل من أقرأ القرآن هناك، لذلك سنكتفي بالإشارة إلى بعض المشهورين، ويأتي على رأس هؤلاء :

أبو الحسن علي بن محمد الأنطاكي التيمي، من الوافدين من المشرق، نزيل الأندلس ومقرئها. قال ابن الفرضي : «أدخل الأنطاكي الأندلس علما جما وكان بصيرا بالعربية والحساب، وله حظ من الفقه، قرأ الناس عليه، وسمعت أنا منه، وكان رأسا في القراءات لا يتقدمه أحد في معرفتها في وقته»⁽⁹⁶⁾ وتوفي بقرطبة سنة (377هـ). وعبد الله بن محمد المقرئ، المعروف بمفرون، من أهل قرطبة كان يقرئ على باب المسجد الجامع بقرطبة وطال عمره، توفي سنة (378هـ)⁽⁹⁷⁾. ومن أهل قرطبة كذلك عبد الرحمن بن الحسن الخزرجي المقرئ، رحل إلى المشرق وأخذ من شيوخ القراءات والحديث هناك. ثم عاد إلى الأندلس في سنة (400هـ)، فأقرأ الناس القرآن بقرطبة في مسجده زمانا، وكان حافظا للخلاف بين القراء، مجودا للقرآن، بصيرا بالعربية، أقرأ في عدة مساجد بقرطبة ثم أجلس للإقراء بجامع قرطبة⁽⁹⁸⁾.

ومن طلمنكة⁽⁹⁹⁾، بثرغر الأندلس، أحمد بن محمد بن عبد الله المقرئ الطلمنكي، كان إماما في القراءات، وثقة في الرواية مشهورا، رحل إلى المشرق، وعاد إلى الأندلس ومات بعد سنة (420هـ)⁽¹⁰⁰⁾. ومحمد بن يوسف بن محمد

(95) عبد الكريم بن محمد السمعاني، الأنساب، تحقيق عبد الله عمر البارودي، الطبعة الأولى (بيروت : دار الجنان، 1408هـ)، 367/5.

(96) ابن الفرضي، 536/2، المقرئ، نفح..، 144/3.

(97) ابن الفرضي، 414/1.

(98) ابن بشكوال، الصلة، 493/2-494.

(99) طلمنكة (Talamanca) مدينة بثرغر الأندلس بناها الأمير محمد بن عبد الرحمن، بينها وبين وادي الحجارة عشرون ميلا، الحميري، ص 393، وذكر المحقق في حاشية ص 393 أن طلمنكة قرية صغيرة في مقاطعة مدريد.

(100) محمد بن أبي نصر الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، الطبعة الثانية (القاهرة وبيروت : دار الكتاب المصري والكتاب اللبناني، 1403هـ) 181/1.

الأموي النجاد، من أهل قرطبة، كان من أهل الضبط والإتقان والمعرفة بما يقرأ ويقرئ، وكان معه نصيب وافر من علم العربية وعلم الفرض والحساب وأقرأ الناس بقرطبة في مسجده، وتوفي سنة (429هـ)⁽¹⁰¹⁾. وعثمان بن سعيد الداني المقرئ، محدث مكثر، ومقرئ متقدم، رحل إلى المشرق قبل الأربعمئة، وطلب علم القراءات وسمع الكثير، وعاد إلى الأندلس فتصدر بالقراءات وألف فيها تواليف معروفة، ونظمها في أرجوزة مشهورة، توفي بدانية سنة (444هـ)⁽¹⁰²⁾.

ومن بلنسية، أحمد بن محمد بن عبد الله الأنصاري، المقرئ. كان حافظا متحققا بالقراءات، مشاركاً في الحديث والعربية، تصدر للاقراء بمالقة بمسجد العطارين مدة طويلة، وأقرأ أيضا بجامع المرية وأخذ عنه الناس وسمعوا منه وتوفي بالمرية سنة (581هـ)⁽¹⁰³⁾. ومحمد بن إبراهيم بن وضاح اللخمي، من أهل قرطبة، رحل حاجا، وأقام في رحلته نحو من تسعة أعوام. وعاد إلى الأندلس، فنزل جزيرة شقر من أعمال بلنسية وأقرأ بها القرآن نحو من أربعين سنة. ولم يأخذ من أحد أجرا، وولي الصلاة والخطبة بجامعها، وتوفي سنة (587هـ)⁽¹⁰⁴⁾. العبارة الأخيرة ربما أوحى لنا أن بعض مقرئي القرآن كانوا يأخذون على إقراءه أجرا.

وبطبيعة الحال فإن المقرئ إذا كان مشهورا بقراءته فإن طلاب القراءات يشدون الرحال إليه. وأبرز مثال على ذلك أحمد بن علي بن يحيى الأنصاري أحد المقرئين بشرق الأندلس، سكن بلنسية، وتصدر للإقراء ورأس في ذلك أهل عصره. قال عنه ابن الأبار: كانت الرحلة إليه في وقته في الأخذ عنه ولم يكن أحد من صناعته يدانيه في الضبط والتجويد والإتقان وحسن الأداء، وقد أقرأ بإشبيلية، وتوفي سنة (609هـ)⁽¹⁰⁵⁾.

وأحمد بن محمد بن إبراهيم الحميري، من أهل قرطبة، والخطيب بجامعها

(101) ابن بشكوال، الصلة، 761/2.

(102) الحميدي، الجذوة، 484-483/2.

(103) ابن الأبار، التكملة، ص ص 115-116.

(104) المقرئ، نفح الطيب، 160/2.

(105) ابن الأبار، التكملة، ص 135.

الأعظم، وتصدر للإقراء بجامع قرطبة مدة طويلة، ودرس علوم اللسان، وكان حافظاً لها بصيراً بها، مشاركاً في غيرها، وتوفي بقرطبة سنة (610هـ)⁽¹⁰⁶⁾. ومن إشبيلية، أحمد بن منذر بن جمهور، الأزدي المقرئ، تصدر للإقراء ببلده، وأخذ عنه الناس وله تأليف في قراءة ورش، وكان مع معرفته بالأداء وتقدمه في الصلاح فقيهاً على مذهب مالك. توفي فيها سنة (618هـ)⁽¹⁰⁷⁾.

ب — إقراء العربية وآدابها :

ومما هو جدير بالملاحظة أن مصطلح الإقراء لا يقتصر على إقراء القرآن الكريم بل يتعداه إلى إقراء العربية وآدابها. ولدينا بعض الشواهد التي استخدم فيها مصطلح الإقراء ليدل ربما على تعليم العربية. ومن الذين أقرؤوا العربية، أحمد بن محمد بن عبد الله الأزدي، من أهل قرطبة، كان فقيهاً كاتباً شاعراً أديباً، تولى قضاء رندة⁽¹⁰⁸⁾، وأقرأ العربية والآداب⁽¹⁰⁹⁾. وأحمد بن محمد بن أحمد (ت 460هـ) من أهل مرسية، يعرف بابن بلال، كان عالماً بالنحو واللغة والآداب، وكان يقرئ العربية⁽¹¹⁰⁾. ومن أهل جيان، أحمد محمد القيسي، يعرف بالفندوي (ت 559هـ) نزل مرسية وأقرأ بها العربية والآداب وكان له حظ من علم الطب⁽¹¹¹⁾. وأحمد بن علي الكتاني النحوي (ت 578هـ تقريباً)، من أهل إشبيلية، أقرأ العربية والآداب واللغات، وكان قائماً عليها متحققاً بصناعتها⁽¹¹²⁾. وإبراهيم بن إسماعيل القيسي (ت 607هـ)، من أهل شقورة⁽¹¹³⁾، وسكن قرطبة، وولي قضاء بعض الكور وأقرأ العربية والآداب بغرناطة وجيان وكان شاعراً

(106) ابن الأبار، التكملة، ص 137.

(107) ابن الأبار، التكملة، ص 147.

(108) رندة (Ronda) بالأندلس من مدن تاكرنا، وهي مدينة قديمة بها آثار كثيرة، وهي على نهر ينسب إليها، الحميري، ص 269.

(109) ابن الأبار، التكملة، ص 103.

(110) ابن الأبار، التكملة، ص ص 37-38.

(111) ابن الأبار، التكملة، ص 95.

(112) ابن الأبار، التكملة، ص 111.

(113) شقورة (Segura de La Sierra)، مدينة من أعمال جيان بالأندلس... الحميري، ص 349.

مجودا⁽¹¹⁴⁾.

يظهر من النصوص السابقة أن مصطلح «الإقراء» محصور الاستخدام في القرآن الكريم واللغة وآدابها، حيث أننا لا نصادف تعبير : أقرأ الحديث أو الفقه أو التفسير أو غير ذلك من العلوم، فيبقى مصطلح الإقراء موقوفاً على علوم بعينها لا يتعدها إلى ما سواها.

رابعا : التدريس :

ليس في التعريف اللغوي لمادة «دَرْس» ما يفيد أن «التدريس» يعني التعليم بمعناه الواسع. فقد جاء في اللسان : «دَرْس الكتاب يدرسه دَرْساً ودراسة ودارسه، من ذلك كأنه عانده حتى انقاد لحفظه..».

ودرّست الكتاب أدْرُسُهُ دَرْساً أي ذلّته بكثرة القراءة حتى خفّ حفظه عليّ⁽¹¹⁵⁾. وفي الحديث : تدارسو القرآن، أي إقرأوه وتعهّدوه لئلا تنسوه⁽¹¹⁶⁾.

وجاء في «تاج العروس» : «(ودرّسه) تدرّيساً.. شُدّد للمبالغة، ومنه مُدرّس المدرسة.. ودَرْس الكتاب، ودَرْس غيره : كرّره عن حفظ»⁽¹¹⁷⁾.

والذين مارسوا مهنة التدريس في الأندلس كثيرون منهم :

أحمد بن عمر الهمداني (ت 526هـ) غرناطي، كان فقيها مشاوراً، «درّس الفقه وأسمع الحديث»⁽¹¹⁸⁾. وعياش بن فرج الأزدي (ت 540هـ)، سكن قرطبة «ودرّس بجامعها الأعظم النحو واللغة»⁽¹¹⁹⁾. وسليمان بن يحيى المعافري (ت 540هـ)، من سرقسطة، كان مقرئاً محققاً مجوداً أقرأ القرآن ودرّس العربية بمسجد ابن السقاء، بقرطبة⁽¹²⁰⁾. ومن إشبيلية، محمد بن سعيد الأنصاري

(114) ابن الأبار، التكملة، ص 212.

(115) ابن منظور، مادة «دَرْس»، 79/6، وقارن محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس، تحقيق محمود محمد الطناحي (الكويت، مطبعة الحكومة، 1396هـ)، 64/16-65.

(116) ابن منظور، 80/6.

(117) الزبيدي، 65/16.

(118) المراكشي، الذيل والتكملة، 1/1، ص ص 349-350.

(119) المراكشي، 2/5، ص ص 486-487.

(120) المراكشي، 96/4-97.

(ت 586هـ) أنفق عمره في إسماع الحديث «وتدريس المذهب المالكي» وتعليم الأدب⁽¹²¹⁾. ومن غرناطة محمد بن أحمد السلمي (ت 590هـ) كان مقرئاً مجوداً ضابطاً طيب النغمة للقرآن، تصدر للإقراء به وإسماع الحديث «وتدريس العربية والآداب»⁽¹²²⁾. وغالب بن عبد الرحمن الأنصاري (ت 600هـ)، من قرطبة، كان من جلة المقرئين ونبلاء المحدثين ومهرة النحويين، أقرأ القرآن وأسمع الحديث «ودرس العربية والآداب»⁽¹²³⁾. ومن قرطبة كذلك أحمد بن محمد الحميري الكتاني (ت 610هـ) أقرأ القرآن وروى الحديث وغيره «ودرس علوم اللسان» بجامع قرطبة طويلاً⁽¹²⁴⁾. وأحمد بن زكريا الأنصاري (ت 626هـ)، كان مقرئاً مجوداً، راوية للحديث متحققاً بالعربية تصدر لإقراء كتاب الله، وإسماع الحديث «وتدريس النحو والآداب»⁽¹²⁵⁾. ومن مرسية، محمد بن أحمد بن حمّال (ت 633هـ) كان مقرئاً مجوداً، أقرأ القرآن «ودرس العربية»⁽¹²⁶⁾. ومن إشبيلية، سليمان بن يحيى القيسي، (ت 646هـ) كان فقيهاً حافظاً ولى خطة الشورى مراراً «ودرس الفقه»⁽¹²⁷⁾. أما أحمد بن عبد الله الأنصاري (ت 652هـ) الذي سبقت الإشارة إليه في موضع آخر من هذا البحث فقد «درس الفقه» وأقرأ القرآن وأسمع الحديث وأدب بالعربية⁽¹²⁸⁾.

يظهر مما سبق أن مصطلح «التدريس» لم يظهر بشكل مهيم على مسرح الحياة العلمية في الأندلس إلا في القرن السادس الهجري تقريباً، وأن استخدامه يكاد ينحصر في علوم اللغة العربية والفقه والمذاهب الفقهية ولا يتعداها إلى العلوم الأخرى كالقرآن أو الحديث أو الرياضيات.

(121) المراكشي، 203/6-207.

(122) المراكشي، 34/6.

(123) المراكشي، 2/5، ص ص 519-520.

(124) المراكشي، 1/1، ص ص 394-397.

(125) المراكشي، 1/1، ص 117.

(126) المراكشي، 2/5، ص 623.

(127) المراكشي، 97/4، ص 98.

(128) ابن فرحون، الدياج المذهب...، 203/1-205.

ومادمننا ناقشنا هنا مصطلح التدريس، فإنه من المناسب جداً أن نتطرق إلى مصطلحي الأستاذ والمدرس نظراً للعلاقة الوثيقة التي تربطهما بالتدريس.

الأستاذ والمدرس :

هناك مصطلحان نجدهما في التراجم الأندلسية، رغم عدم شيوعهما، هما : مصطلح أستاذ ومصطلح مدرس، ويظهر أنهما صفتان علميتان تطلقان على القلة القليلة من العلماء الذين عرفتهم حضارة الإسلام بالأندلس. وسنعرض هنا ما توصلنا إليه في هذا الباب.

1 — الأستاذ :

«فأما الأستاذ، فكلمة ليست بعربية، يقولون للماهر بصنعتة أستاذ، ولا توجد هذه الكلمة في الشعر الجاهلي. واصطلحت العامة إذا عظموا الخصي أن يخاطبوه بالأستاذ. وأما أخذوا ذلك من الأستاذ الذي هو الصانع. لأنه ربما كان تحت يده غلمان يؤدبهم فكان أستاذاً في حسن الأدب. ولو كان عربياً لوجب أن يكون اشتقاقه من «الستذ» وليس ذلك بمعروف⁽¹²⁹⁾.

و«أستاذ» فارسي وأصله بالفارسية الحديثة «أستاذ»، ومعناه المعلم الماهر بصنعتة وهو بالفهلوية OSTAT⁽¹³⁰⁾.

ويرى أحد الدارسين أنه ربما كان المقصود بالأستاذ، المدرس الراتب في مدرسة في الغالب، وأن المقصود بالمدرس هو المعلم في المساجد تطوعاً من غير أن يكون له أجر راتب وجراية مقررة⁽¹³¹⁾. ويذهب باحث آخر إلى القول إن لقب «أستاذ» قد يدل على صفة مهنية، وقد ارتبط هذا اللقب بعلماء العربية⁽¹³²⁾. إلا

(129) أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي، المعرب، تحقيق ف. عبد الرحيم، الطبعة الأولى (دمشق : دار القلم، 1410هـ)، ص 125.

(130) انظر تعليق محقق المعرب، حاشية ص 15.

(131) انظر : بلغة الأمانة ومقصد الليب فيمن كان بسنة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب، لمؤلف مجهول، تحقيق عبد الوهاب بن منصور (الرباط : المطبعة الملكية، 1404هـ) ص 17.

(132) يوسف بن علي العربي، الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين، الطبعة الأولى (الرياض : مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1416هـ)، ص ص 204-205.

أن تلك الآراء السابقة يعوزها الدليل، حيث لا دليل ثابت على أن لقب «الأستاذ» لا يطلق إلا على من اشتغل بالتدريس في مدرسة وليس صحيحاً كذلك أن لقب «أستاذ» لا يطلق إلا على علماء العربية؛ لقد شهد القرن السادس الهجري توسعاً في استخدام هذا اللقب وأطلق على الكثير من العلماء ذوي التخصصات العلمية المختلفة ولا علاقة لذلك بالمدرسة حيث أن الأندلس لم تعرف المدرسة كمؤسسة علمية حكومية إلا في القرن الثامن الهجري (750هـ) تقريباً وهي المدرسة النصرية، التي أنشأها السلطان يوسف أبو الحجاج في غرناطة (ت 755هـ)⁽¹³³⁾. ولا علاقة له كذلك بالنبوغ بعلم معين كعلم العربية مثلاً. فقد كان أحمد بن محمد الأسدي العكاشي الضرير، من جيان، «أستاذ إقراء وتجويد»⁽¹³⁴⁾ والإقراء هنا ربما يشمل إقراء القرآن الكريم والعربية وآدابها.

ومن الذين حملوا لقب أستاذ، أبو محمد عبد الله بن يحيى بن فتوح الحضرمي (ت 578) الداني النحوي المعروف بعبدون وبابن صاحب الصلاة. أقرأ النحو بشاطبة زمانا وأدب أبناء صاحب بلنسية وكان مبرزاً في العربية، مشاركاً في الفقه ويقول الشعر⁽¹³⁵⁾. وفي بلنسية ظهر ابن أبي البقاء أبو عبد الله محمد بن سلمان الأنصاري، الأستاذ (ت 610هـ) برع بالعربية وعلم بها وكان شاعراً مجوداً⁽¹³⁶⁾ وبشار الأعمى [الأندلسي]، كان نحويًا أستاذًا في العربية، شيخاً من شيوخ الأدب⁽¹³⁷⁾.

وجاء في بعض المصادر ما يؤكد أن العالم يمكن أن يجمع بين أكثر من لقب

(133) انظر : لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة، حواشي المحقق، 36/3، 79، 325، ولمعرفة تفاصيل أكثر عن المدرسة النصرية، انظر : محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ص ص 388-407.

(134) المراكشي، الذيل والتكملة، 1/1، ص ص 528-259.

(135) ابن الأبار، تحفة القادِم، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى (بيروت : دار الغرب الإسلامي، 1406هـ)، ص ص 90-91.

(136) ابن الأبار، المقتضب، تحقيق إبراهيم الأبياري، الطبعة الثانية (القاهرة وبيروت : دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، 1402هـ) ص 165.

(137) الحميدي، الجذوة، 281/1.

مثل : غانم بن وليد بن محمد الخزومي (ت 470هـ) من أهل مالقة⁽¹³⁸⁾، حيث وصفته تلك المصادر بأنه فقيه، مدرس⁽¹³⁹⁾ وأستاذ في الآداب وفنونها، مجود مع فضل وحسن طريقة⁽¹⁴⁰⁾. أما عمر بن محمد الأزدي، من إشبيلية (ت 645هـ)، فقد كان متقدماً في العربية «كبير أساتذها» بإشبيلية، تصدر لتدريسها نحو ستين عاماً، كان يبلغ أحياناً مستفاده من الطلبة أربعة آلاف درهم في الشهر الواحد⁽¹⁴¹⁾. وهذا الدخل المرتفع نسبياً ربما يعكس أهمية ذلك الأستاذ.

إنه من اللافت للنظر أنه حتى القضاة ربما حملوا لقب «أستاذ» فالقاضي عثمان بن منظور (ت 735هـ) من مالقة، كان «أستاذاً ممتعاً»⁽¹⁴²⁾. ومن أعلام القضاة بالأندلس من جمع إلى لقب القاضي عدة ألقاب علمية أخرى، مثل : «الشيخ، الفقيه، الأستاذ المتفنن»⁽¹⁴³⁾، القاضي أبو القاسم محمد بن أحمد الغرناطي (ت 760هـ).

وفي هذا القرن أي الثامن الهجري يلاحظ أن بعض معلمي الكتاتيب بلغوا من الدرجة العلمية ما أهلهم لحمل لقب «الأستاذ». قال لسان الدين ابن الخطيب عن معلمه في الكتاب، محمد بن عبد الولي الرُّعيني، من أهل غرناطة (ت 750هـ) : «الشيخ المكتَّب، الأستاذ الصالح.. علَّم أعلام القرآن، في إتقان تجويده والمعرفة بطرق روايته... يلزم المكتب، ناصح التعليم.. وهو أستاذي وجاري الألفق، لم أتعلم الكتاب العزيز إلا في مكتبته»⁽¹⁴⁴⁾.

ومن إحدى الإشارات يظهر أن لقب «أستاذ» لم يكن مقصوراً فقط على الرجال، بل ربما نافستهم النساء عليه وحملته بجدارة، فقد كانت حفصة الركونية،

(138) مالقة (Malaga) مدينة بالأندلس عامرة من أعمال رية سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية. انظر : شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان (بيروت : دار صادر ودار بيروت، 1376هـ) 43/5.

(139) المدرس : الكثير الدرس والتلاوة في الكتاب، والمدرس المعلم. انظر : المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية (طهران : مكتبة طهران العلمية، د:ت) 279/1.

(140) الحميدي، الجذوة، 518/2، ابن بشكوال، الصلة، 669/2.

(141) المراكشي، الذيل والتكملة، 2/5، ص ص 260-264.

(142) الثباہي، المرقية...، ص 147.

(143) الثباہي، المرقية، ص ص 171-177.

(144) لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة...، 33-34/3.

التي أشير إليها في موضع سابق من هذا البحث : «جيدة البديهة، رقيقة الشعر،
«أستاذة» وليت تعليم النساء»⁽¹⁴⁵⁾.

ولدينا بعض الإشارات التي ربما أوحى بأن بعض العلماء حملوا أيضا لقب
مدرس، مثل :

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن خلسة اللخمي (ت 519هـ) من أهل
بلنسية، كان يدرس العربية والآداب وأقرأ وقتا بدانية⁽¹⁴⁶⁾. وأحمد بن عبد
الرحمن بن إدريس التجيبي من أهل مرسية وصاحب الأحكام فيها (ت 563هـ)،
كان فقيها حافظا مشاورا مدرسا يتقدم في معرفة الأحكام والشروط، ويشارك
في علوم القرآن والآثار، تقلد خطة الشورى وأحكام القضاء ببلده⁽¹⁴⁷⁾ ومحمد
بن عبد الله الأنصاري (ت 750هـ)، من غرناطة، كان من جلة المقرئين، صالحا
فقيها مدرسا مبرزاً⁽¹⁴⁸⁾. وأحيانا قد يحمل القاضي لقب مدرس، فقد جاء في
ترجمة القاضي أبي عبد الله محمد بن عبد السلام : الشيخ، الفقيه، المدرس⁽¹⁴⁹⁾.

لقد اعتدنا على سماع هذه الألقاب العلمية في المشرق، وقد تعود ندرة استعمالها
في الأندلس إلى عظم أهميتها لدى المجتمع هناك فليس كل عالم يمكنه الحصول على
مثل هذه الألقاب. وربما كان المراكشي محققاً حين قال :

«أن الوصف بالأستاذية وما يناسبها من الأوصاف، لا تطلق إلا على نبلاء أهل
العلم وطلابه»⁽¹⁵⁰⁾. ومن التعليق السابق يمكن القول إن مصطلح «أستاذ» ربما
كان من الناحية العلمية أرفع من لقب مدرس.

(145) ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم الأديباء، تحقيق أحمد فريد رفاعي، (بيروت : دار إحياء
التراث العربي، د:ت)، 1/219-227، لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة...، الطبعة الثانية
القاهرة : مكتبة الخانجي، 1292هـ)، 1/491-494.

(146) ابن الأبار، المقتضب، ص 54.

(147) ابن الأبار، التكملة، ص ص 100-101.

(148) المراكشي، الذيل والتكملة، 6/327.

(149) الثباهي، المرقبة...، ص 161.

(150) المراكشي، الذيل والتكملة، 2/5، ص 460.

خامساً : التعليم :

من المصطلحات التي يلاحظها الدارس في كتب التراجم الأندلسية مصطلح «التعليم» كالقول مثلاً : كان فلان «يعلم بالقرآن» أو «علم بالقرآن»، أو «معلماً بالقرآن» أو فلان كان «معلماً بالعربية» أو «معلماً بالحساب». ولدينا طائفة من الأمثلة على شيوع مثل تلك المصطلحات.

فمثلاً : إبراهيم بن محمد الأنصاري، من أهل غرناطة، يعرف بابن الجلاء، «كان يعلم بالقرآن»⁽¹⁵¹⁾. وإبراهيم بن أحمد الأزدي المكنب، من قرطبة، «كان يعلم بالقرآن»⁽¹⁵²⁾. ومن أهل دانية، إبراهيم بن حسين القيسي، «علم بالقرآن» وحملت عنه القراءات وكتبها، وكان معروفاً بالتجويد والإتقان، مع مشاركة في العربية⁽¹⁵³⁾. ومن سكان طليطلة، سرواس بن حمود الصنهاجي (ت 391هـ)، «كان معلماً بالقرآن»⁽¹⁵⁴⁾. أما محمد بن أحمد العقيلي (ت 400هـ)، من أهل قرطبة، فقد كان مقدماً في علم العربية والبصر لمعاني الشعر، «ويعلم بالعربية»⁽¹⁵⁵⁾. ومن قرطبة كذلك مروان بن أحمد بن أبي الحباب (ت 401هـ)، كان أديباً نحويًا، «وكان يعلم بالعربية»⁽¹⁵⁶⁾. ومن قرطبة كذلك جراح بن موسى الغافقي (ت 507هـ)، كان أديباً حافظاً حاذقاً، «وكان يعلم بالعربية واللغة والشعر»⁽¹⁵⁷⁾. وأحمد بن سعيد المقرئ (ت 520هـ تقريباً)، سكن سرقسطة⁽¹⁵⁸⁾، وأقرأ الناس هناك وعلم بالعربية⁽¹⁵⁹⁾. ومن أهل شنترين⁽¹⁶⁰⁾، أبو

(151) ابن الأبار، التكملة، ص 205-206.

(152) ابن الأبار، التكملة، ص 210.

(153) ابن الأبار، التكملة، ص 203-204.

(154) ابن بشكوال، الصلة، 1/232.

(155) ابن بشكوال، الصلة، 2/485.

(156) ابن بشكوال، 2/616.

(157) ابن بشكوال، 1/134.

(158) سرقسطة (Saragosse) : في شرق الأندلس وهي المدينة البيضاء وهي قاعدة من قواعد الأندلس.. وسرقسطة واسعة الخطة لا يعرف بالأندلس مدينة تشبهها، وقيل : تعرف بالبيضاء لأن أسوارها القديمة من حجر الرخام الأبيض، الحميري، ص 317.

(159) ابن الأبار، التكملة، ص 55.

(160) شنترين (Santarem) : بالأندلس مدينة معدودة في كورباجة، وهي مدينة على جبل عال ولها بساتين كثيرة وفواكه ومباقل وبينها وبين بطليوس أربع مراحل : الحميري، ص 346.

القاسم خلف بن يوسف الأبرشي النحوي (ت 532هـ)، تجول في بلاد الأندلس وغيرها «معلماً بالعربية»، وتوفي بقرطبة⁽¹⁶¹⁾.

وهكذا يتبين من العرض السابق مدى شيوع مصطلح التعليم بالقرآن أو العربية أو الشعر، وهو مصطلح في تقديري لا يخرج عن كون المقصود به تعليم القرآن أو تعليم العربية أو الشعر. لكن من الواضح أن مصطلح علم بكذا أو كان معلماً بكذا لا يندرج على بعض العلوم كالفقه أو الحديث أو التفسير مثلاً حيث لا نصادف تعبير: كان معلماً بالفقه أو علّم بالفقه أو كان معلماً بالحديث أو علّم بالحديث ولا كذلك القول، كان معلماً بالتفسير أو علم بالتفسير.

ويلاحظ كذلك من العرض السابق أن البعض ممن أتينا على ذكرهم ممن علموا بالقرآن أو العربية كانت شهرتهم لصيقة بعلوم أخرى، كأن يلقب هذا العالم أو ذاك بلقب المكتّب أو المقرئ وهكذا. ومن الملاحظ كذلك أن جميع من ذكرناهم آنفاً لا يطلق عليهم لفظ «معلم» وإن كانوا ينعتون بتعليم علم من العلوم (!).

أما من أطلق عليهم لقب «معلم» فإن كتب التراجم الأندلسية حافلة بهم، حيث يصادف القارئ في تلك التراجم مصطلح: معلم، ومعلم كتاب ومعلم هجاء كثيراً والشواهد على استخدام تلك المصطلحات كثيرة جداً.

فمن أهل إستجة، مطرف بن لطفون، كان معلماً وكان شيخاً صالحاً⁽¹⁶²⁾. وإسحاق بن قاسم بن سمرة بن السمع الخولاني، كان معلماً⁽¹⁶³⁾. وبشر بن سعيد العبدوي، من بعض الثغور الشرقية، كان معلماً فقيهاً⁽¹⁶⁴⁾. ومن أهل قرطبة، خلف بن محمد بن خلف الخولاني المكتّب، (ت 374هـ) كان معلماً⁽¹⁶⁵⁾. وأحمد بن إبراهيم الكلاعي المعلم (ت 391هـ)، من أهل قرطبة كذلك، كان فقيهاً حافظاً للمسائل عاقداً للشروط⁽¹⁶⁶⁾.

(161) ابن الأبار، المقتضب، ص 66، ابن الأبار، تحفة القادم، ص ص 22-23.

(162) ابن الفرضي، 836/2.

(163) ابن الفرضي، 143/1.

(164) ابن الفرضي، 178/1.

(165) ابن الفرضي، 249/1.

(166) ابن الفرضي، 123/1.

ومما تحسن الإشارة إليه هنا أن الاشتغال بالتعليم وحمل ألقابه المختلفة لم يكن في الأندلس وقفا على الرجال فحسب، بل شاركتهم النساء في الانتماء إلى هذا الميدان وتحمل تبعاته العلمية والأخلاقية بكل جدارة، ومن النساء اللاتي حملن لقب «المعلمة»: غالبية بنت محمد الأندلسية⁽¹⁶⁷⁾. وكذلك فخر المعلمة (ت 317هـ)⁽¹⁶⁸⁾، ومنهن حفصة بنت الحاج الرُّكُونِيّ، من غرناطة (ت 586هـ)، مشهورة بالأدب، جيدة البديهة، رقيقة الشعر، ولّيت تعليم النساء في دار المنصور أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي الموحدي⁽¹⁶⁹⁾. والأمثلة على النساء الأندلسيات اللاتي أسهمن بنصيب وافر في مجال التعليم كثيرة⁽¹⁷⁰⁾.

وعلى كل حال، فإن فائدة النماذج السابقة من أسماء المعلمين للمهتم بهذا الموضوع محدودة، حيث إنها لا تفصح لنا عن ماهية عمل هذا المعلم أو ذاك. لكن لدينا طائفة أخرى من المصطلحات التي ربما تحدد لنا ماهية عمل المعلم، من ذلك أن محمد بن أحمد الزهري القرطبي الإشبيلي (ت 325هـ)، من أهل قرطبة، كان معلم كتاب، وكان إضافة إلى ذلك يجتمع إليه أهل الحسبة والمعلمون ويقرؤون عليه⁽¹⁷¹⁾، ويظهر أن الإشبيلي كان من المعلمين ذوي الخطوة والمكانة البارزة في المجتمع، فقد كان يدخل على أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد ويأخذ جوائزته⁽¹⁷²⁾، وحبيب بن أحمد، المعلم من أهل قرطبة، كان معلم كتاب⁽¹⁷³⁾، وأحمد بن خلف الأموي (ت 499هـ)، من أهل قرطبة، كان حافظا للقرآن ومعلم

(167) ابن بشكوال، الصلة، 691/2.

(168) ابن الفرضي، 594/2.

(169) انظر: لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة، 491/1-494، الحموي، معجم الأدباء، 227-219/10.

(170) عن النساء الأندلسيات اللاتي أسهمن في حركة التعليم والثقافة في الأندلس، انظر: المقرئ، نفع الطيب...، 166/4-178، 205-211، 283-295، خوليان ريبيرا، التربية... ص ص 159-165، محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم ص ص 368-369، سعد بن عبد الله البشري، الحياة العلمية.. ص ص 225-227.

(171) ابن الفرضي، 695/2-696.

(172) ابن الفرضي، 696/2.

(173) ابن الفرضي، 227/1.

كتاب⁽¹⁷⁴⁾. ومن قرطبة كذلك، محمد بن خمسين الثقفي الأحذب، كان معلم كتاب⁽¹⁷⁵⁾. ومن إستجة، علي بن جابر الأزدي، كان معلم كتاب وكان فاضلا خيرا⁽¹⁷⁶⁾. ومن سكان بلنسية⁽¹⁷⁷⁾، إبراهيم بن أحمد بن محمد الأنصاري الطرطوشي، كان معلم كتاب موصوفا بالصلاح⁽¹⁷⁸⁾.

قد لا يختلف العرض السابق لمصطلح معلم ومعلم كتاب، كثيرا عما هو معروف في المشرق، حيث أن تلك المسميات هي مشرقية الأصول. لكن الأمر بالنسبة للأندلس لا يقف عند هذا الحد، بل يظهر أن التعليم في مراحل الأولى قد بلغ الغاية من الرقي والتعقيد لدى الأندلسيين أو إن شئت الدقة في الاختصاص حيث أصبح لدينا ما يعرف بمعلم الهجاء، فقد كان محمد بن عبد الله البهراني (ت 385هـ) القرطبي، معلم هجاء، وكان رجلا صالحا⁽¹⁷⁹⁾.

ويبدو أننا هنا نواجه أمراً بالغ الصعوبة فيما يتعلق بالتفريق بين وظيفة معلم الكتاب ومعلم الهجاء. ويزداد الأمر تعقيدا إذا ما علمنا أن الأندلس، في تاريخها العلمي الحافل، عرفت أيضا ما يعرف بمعلم المبتدئين. وإن كانت الإشارة إليه في مصادر هذه الدراسة نادرة جدا مثله مثل معلم الهجاء، لكن قلة الإشارة إليه لا تنفي وجوده، فقد كان إبراهيم بن مبشر بن شريف البكري (ت 395هـ) يقرىء في دكانه قرب المسجد الجامع بقرطبة، وينقط المصاحف ويعلم المبتدئين⁽¹⁸⁰⁾.

ومن إحدى الوثائق يظهر أن المعلم يمكن أن يقوم بعدة وظائف تعليمية في آن واحد، فقد جاء في تلك الوثيقة ما نصه :

«استأجر فلان فلانا المعلم ليعلم ابنه فلانا الخط والهجاء والقرآن ظاهرا أو نظرا

(174) ابن بشكوال، 73-72/1.

(175) ابن الفرضي، 696/2.

(176) ابن الفرضي، 532/2.

(177) بلنسية (Valencia) في شرق الأندلس بينها وبين قرطبة على طريق بجاية ستة عشر يوما وهي مدينة سهلية، بينها وبين البحر ثلاثة أميال. الحميري، ص 97.

(178) ابن الأبار، التكملة، ص 206.

(179) ابن الفرضي، 781/2.

(180) ابن بشكوال، 88/1.

عاما، وله كذا بكذا وكذا...» (181).

وجاء في نص وثيقة أخرى شبيهة بالسابقة ما يلي :

«أستاذنا فلان بن فلان، فلان بن فلان المعلم، ليعلم ابنه فلانا أو ابنته فلانة أو بنيه فلانا وفلانا، القرآن نظرا أو ظاهرا، والكتب والخط والهجاء عاما...» (182).

وهكذا أظن أن نصوص الوثيقتين ربما تجلو لنا بعض الغموض المحيط بمصطلحات التعليم في الأندلس، حيث نلاحظ أن المعلم يمكن أن يقوم بتعليم الهجاء والخط والكتابة، وإقراء القرآن وتحفيظه ليس فقط للصبيان بل ربما تجاوزه إلى تعليم البنات، وهذا على الأقل فيما يتعلق بمرحلة التعليم الأولي. وفي نفس هذه المرحلة أعني مرحلة التعليم الأولي يمكن أن يشترك أكثر من معلم واحد في عملية التعليم، أي يشتركان في مكتب واحد. فقد جاء في صيغة أحد العقود :

«وثيقة شركة المعلمين : أشهد فلان بن فلان، وفلان بن فلان، أنهما اشتركا في تعليم القرآن والكتب، على أن يقعدا لذلك في مقعد واحد ولا يفترقا، فيما قسم الله عز وجل لهما من رزق وساقه إليهما من فضل، فهو بينهما بالسواء، كما الكلفة عليهما فيما يتوليانه من التعليم سواء...» (183).

وفي نص هذه الوثيقة من شراكة المعلمين في مكتب واحد خلاف لما ذهب إليه إحسان عباس حيث قال : «وليس في المصادر أية إشارة إلى أن الكتاب الواحد كان يقوم بالتعليم فيه عدة مكتبين...» (184).

وأخيرا يمكن القول إن مصطلح المعلم الذي أكثرنا الحديث عنه هنا ليس مصطلحا ضيق الاستخدام لا يستخدم إلا في تدريس أبناء العامة، كما يذهب إلى

(181) ريبيرا، التربية...، ص 174.

(182) ريبيرا، التربية...، 170 وانظر أيضا : أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب. (بيروت : دار الغرب الإسلامي، 1401هـ) ص ص 236-252.

تحدث المؤلف في هذا الجزء باستفاضة ظاهرة عن تعليم القرآن للصبيان وأحكامه وشروطه.

(183) ريبيرا، ص 173، حول صيغة هذا العقد وصيغ العقود السابقة، انظر : ريبيرا، ص ص 169-175، محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ... ص ص 478-483.

(184) إحسان عباس، التعليم في الأندلس...، ص 61.

ذلك إحسان عباس⁽¹⁸⁵⁾ ففي الحقيقة أن لفظ معلم أطلق على واحد من المؤدين الكبار الذين زخر بهم بلاط الحكم المستنصر.

ففي حديث ابن حيان في المقتبس عن تعيين الخليفة الحكم المستنصر الفقيه القسطلي، أحمد بن محمد بن يوسف، لتعليم ولده الأمير أبي الوليد هشام. أشار ابن حيان إلى الفقيه القسطلي مرة واحدة بأنه مؤدب ونعته ثلاث مرات في نفس الموضع بأنه معلم. ومادام الأمر كذلك فليس من المستبعد أن يكون لفظ مؤدب مرادفاً للفظ معلم⁽¹⁸⁶⁾.

وإتماماً للفائدة واستكمالاً للجوانب الصورة فإنه يجب التنويه بأن التعليم في الأندلس لم ينحصر في الجانب الأدبي كالعلوم التقليدية من أدب وفقه وحديث ودراسات قرآنية، بل تجاوز ذلك إلى العلوم العقلية كالرياضيات والفلك والهندسة والطب، ومارس النابغون في تلك العلوم تعليمها لطلاب العلم بالأندلس، ولدينا أمثلة كثيرة على هذا النوع من التعليم. ومن الذين برزوا فيه :

أبو القاسم مسلم بن أحمد المعروف بالمجريطي (ت 398هـ)، «كان إمام الرياضيين بالأندلس في وقته وأعلم من كان قبله بعلم الأفلاك وحركات النجوم وله عناية بإرصاد الكواكب، وقد أنجب تلاميذ جلة لم ينجب عالم بالأندلس مثلهم»⁽¹⁸⁷⁾. وعبد الله بن أحمد السرقسطي (ت 448هـ) «كان نافذاً في علم

(185) انظر : إحسان عباس، ص 61، وقال الدكتور إحسان عباس في موضع آخر من بحثه : «أن لفظة» معلم «لم تستعمل في الحديث عن أحد أبناء الخاصة — فيما وصل إليه إطلاعي — إلا مرة واحدة، وذلك حين يقول الحميدي في ترجمة أحمد بن محمد بن عبد الوارث : أخبرني أبو محمد علي بن أحمد (أي ابن حزم) أنه كان معلمه» ص 59.

(186) ابن حيان، المقتبس...، ص ص 76-77، وانظر : ريبيرا، ص ص 125-126، ذهب أحد الدارسين في التاريخ الأندلسي إلى القول : «إن لقب المعلم لمن يعلم الأولاد في المرحلة الأولى من تحصيلهم العلم. أما المؤدب، فهو الذي يؤدب أولاد الخاصة». وهذا الزعم ينقصه الدليل. انظر : كريم عجيل حسين، الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية، (92-494هـ) الطبعة الأولى (بيروت : مؤسسة الرسالة، 1396هـ) ص 369.

(187) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ص 168-169، أحمد بن القاسم بن خليفة المعروف بابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا. (بيروت : دار مكتبة الحياة، د:ت) ص ص 482-483، ابن أبي أصيبعة أشار إلى المحيط بالمرحطي — بالحاء — ويبدو أنه تحريف. انظر ص ص 482-484.

العدد والهندسة والنجوم وقعد ليعلم ذلك في بلده»⁽¹⁸⁸⁾. وفي طليطلة، برز أبو إسحاق بن إبراهيم بن لب التجيبي المعروف بالقويدس (ت 454هـ)، الذي سبقت الإشارة إليه في موضع آخر من هذا البحث، حيث برع في علم العدد والهندسة والفرائض، «وقعد للتعليم بذلك زمانا طويلا، وكان له بصر بعلم هيئة الأفلاك وحركات النجوم»⁽¹⁸⁹⁾. وفي بلنسية، اشتهر أحمد بن أبي المطرف بن سعد بن جزي (ت 583هـ) حيث «غلب عليه علم الفرائض والحساب فقعد للتعليم بذلك في جامع بلنسية، وكان ثقة صدوقا»⁽¹⁹⁰⁾. والإشارة إلى المسجد الجامع تفيدنا أن الجامع لم يعد حكرا على تدريس علوم الإسلام التقليدية كالقرآن الكريم والحديث واللغة بل أصبح مكانا رحيبا لتدريس العلوم الأخرى.

ومن الذين اشتهروا في بلنسية كذلك أحمد بن إبراهيم بن سعد الخير الأنصاري (ت 593هـ تقريبا)، فقد كان من أهل العلم بالفرائض والحساب، «وقعد لتعليم الحساب والهندسة» وأخذ عنه جماعة من أهل بلده وانتفعوا به⁽¹⁹¹⁾.

وقد عرفت قرطبة الكثير من العلماء البارزين في مجال الرياضيات والفلك والهندسة الذين جلسوا لتعليم طلابها، ومن هؤلاء :

ابن العطار محمد بن خيرة، «متقن لعلم العدد والهندسة والفرائض وقعد لتعليمها»، إضافة إلى حذقه لصناعة النجوم وعناية بعلم حركاتها⁽¹⁹²⁾. وإبراهيم بن سعيد بن برقان، «كان عالما بالحساب والفرائض معلما بذلك وله أوضاع حسنة بالحساب»⁽¹⁹³⁾. وأبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر بن الصفار، «كان متحققا بعلم العدد والهندسة والنجوم وقعد ليعلم ذلك»⁽¹⁹⁴⁾، ولابن الصفار مؤلفات عدة منها : **زيج مختصر على مذهب السندهند** وكتاب **في العمل**

(188) صاعد الأندلسي، ص 175.

(189) صاعد الأندلسي، ص 179.

(190) ابن الأبار، التكملة، ص ص 117-118.

(191) ابن الأبار، التكملة، ص 223.

(192) صاعد الأندلسي، ص 174.

(193) ابن الأبار، التكملة، ص 171.

(194) صاعد الأندلسي، ص 171، ابن أبي أصيبعة، ص 484.

بالأسطرلاب⁽¹⁹⁵⁾. وأخيرا فقد كان أبو الأصبغ عيسى بن أحمد الواسطي «أحد المحكمين بعلم العدد والهندسة والفرائض، وقعد في قرطبة لتعليم ذلك» وله اهتمام أيضا بعلم هيئة الأفلاك وحركات النجوم⁽¹⁹⁶⁾. ومن العلماء الذين لم تشر مصادر تراجمهم إلى المدن التي عاشوا أو برزوا فيها :

أبو القاسم أحمد بن محمد العدوي المعروف بالطنيزي، «كان معلما لعلم الهندسة والعدد نافذا فيها» وله كتاب حسن في المعاملات⁽¹⁹⁷⁾. وأبو بكر أحمد بن محمد الأنصاري، «كان متقدما في علم العدد والهندسة والنجوم وكان يجلس لتعليم ذلك» في أيام الحكم⁽¹⁹⁸⁾.

سادسا : التكتيب :

«المُكْتَب : بضم الميم، وسكون الكاف وكسر التاء المنقوطة باثنتين، وفي آخرها الباء المنقوطة بواحدة، هذه النسبة إلى تعليم الخط ومن يحسن ذلك ويعلم الصبيان الخط والأدب»⁽¹⁹⁹⁾.

وقال ابن سيده : «المُكْتَب : المُعَلِّم. وقال اللحياني : هو المُكْتَب...»⁽²⁰⁰⁾. وفي رواية أخرى عن اللحياني : المكتب الذي يعلم الكتابة⁽²⁰¹⁾. وكيفما كان الأمر فإن التعريفات السابقة كلها تكاد تؤكد على أن المكتب هو المعلم الذي يقوم بتعليم الكتابة للصبيان وربما الأدب أيضا. وكتب التراجم الأندلسية لا تخلو من الإشارة إلى بعض المشهورين ممن مارسوا عملية تعليم الكتابة للناشئة، ومن هؤلاء :

خلف بن محمد بن خلف الخولاني المكتب، من أهل هرطبة. رحل إلى المشرق،

(195) صاعد الأندلسي، ص 171.

(196) صاعد الأندلسي، ص 173.

(197) صاعد الأندلسي، ص 168.

(198) صاعد الأندلسي، ص ص 166-167.

(199) السمعاني، الأنساب، 372/5.

(200) علي بن إسماعيل بن سيده، المحكم واخيط الأعظم في اللغة، تحقيق مراد كامل، الطبعة الأولى (القاهرة : معهد المخطوطات العربية، 1392هـ) 483/6.

(201) ابن منظور، لسان العرب، 699/1.

وكان معلماً عسراً في الإسماع. ويقول عنه ابن الفرضي : كانت عنده فوائد فكان يصبر على الاختلاف إليه فيها، واختلف إليه ابن الفرضي نفسه وسمع منه. وتوفي سنة (374هـ) (202).

وربما نبغ المكتب في أكثر من مهارة أو علم فمثلاً : يوسف بن خلف البجاني المكتب، كانت له الإمامة في مسجده، ويعلم القرآن. كما كان وراقاً محسناً حلو الخط، حسن الرتبة، وتوفي بعد الأربعمائة (203). وإبراهيم بن محمد بن سلمة بن سيد الناس المكتب، إضافة إلى كونه مارس حرفة تعليم الكتابة، فقد كان يعلم القرآن. أو كما قال عنه ابن الأبار : «أدب بالقرآن دهرًا طويلاً» (204). وتوفي سنة (551هـ). وكذلك فإن إبراهيم بن محمد الأموي المكتب، من أهل إشبيلية، كان يعلم القرآن — أو كما جاء عند ابن الأبار، «علم بالقرآن»، وأخذ عنه، وتوفي سنة (590هـ) (205). وأحمد بن محمد بن خلف القشيري، المكتب، من أهل غرناطة، حدث بالموطأ وأخذه عنه جماعة، كما أخذ عنه الموطأ شيخ ابن الأبار، أبو جعفر بن الدلال سنة (597هـ) (206). ومحمد بن رشيق المكتب، يعرف بابن السراج، محدث، وله رحلة إلى المشرق، وعاد إلى الأندلس، وروى عنه أبو عمر بن عبد البر الحافظ وأثنى عليه، وقال : كان ثقة فاضلاً، من أحسن الناس قراءة للقرآن وأطيبهم صوتاً (207). وإبراهيم بن أحمد بن محمد الأزدي. المكتب. من أهل المرية (208)، وسكن قرطبة. كان يعلم القرآن، أو كما يقول ابن الأبار — «علم بالقرآن — وكان من أهل الدين والفضل بمكان» (209).

(202) ابن الفرضي، 249/1.

(203) ابن بشكوال، الصلة، 969/3-970.

(204) ابن الأبار، التكملة، ص 218-219.

(205) ابن الأبار، التكملة، ص 207.

(206) ابن الأبار، التكملة، ص 124.

(207) الحميدي، الجذوة، 99/1.

(208) المرية (Almeria) مدينة كبيرة من كورة إلبيرة من أعمال الأندلس وكانت هي وبجاجة باي الشرق، منها يركب التجار وفيها المراكب.. وفيها مرفأ ومرسى للسفن ويعمل بها الوشي والدباج، ياقوت الحموي، 119/5، وقارن : الحميري، ص ص 537-538.

(209) ابن الأبار، التكملة، ص 210.

يلاحظ إلى جانب ما تقدم أن مصطلح تكتيب القرآن بدأ يظهر بوضوح في هذه الفترة أي القرن السادس الهجري، علماً أن تعريف المُكْتَب لا يشملته حسب ما تقدم.

ومن بعض النصوص التي تم العثور عليها في أحد المصادر الأندلسية يمكن القول إن مصطلح التكتيب لم يعد مقتصرًا على تعليم الكتابة والخط والأدب بل تعداه إلى إكتاب القرآن، ومن ذلك أن أحمد بن محمد بن الصميل الأنصاري استوطن إشبيلية، ولزم بها «إكتاب القرآن العظيم»⁽²¹⁰⁾ وعياش بن فرج الأزدي (ت 540هـ) من قرطبة، كان معتنياً بالقرآن وتجويده وحروفه «وأكتبه زماناً طويلاً»⁽²¹¹⁾، ومن قرطبة كذلك عيسى بن محمد الغافقي، من مجودي مقرئها، «أكتب القرآن مدة طويلة»⁽²¹²⁾. ومحمد بن عبيد الله الأوسي من مالقة (ت 617هـ)، من جُلة المقرئين لكتاب الله القائمين على تجويده، «أكتبه طويلاً»⁽²¹³⁾ أما محمد بن أحمد الأنصاري، شريشي الأصل، (ت 653هـ) فقد كان «خاتمة المقرئين المجودين، ثابر على الإكتاب وتأديب النساء»⁽²¹⁴⁾.

إنه لمن اللافت للنظر بشأن من ينتسبون إلى تعليم الكتابة أو التكتيب من أتينا على بعض أخبارهم هنا، أن المصادر التي ترجمت لهم لم تمدنا بمعلومات شافية عن أدائهم المهني في تعليم الكتابة ولم تتطرق كذلك إلى ظروفهم المعيشية، وما يتقاضونه على تعليم مهارة الكتابة من أجور وأين يكون التعليم في المسجد أم في المنزل، وبدلاً من ذلك انصب اهتمام تلك المصادر على العلوم الأخرى التي اشتهر بها هؤلاء المكتوبون كإقراء القرآن أو سماع الحديث أو حتى البروز في فن ما كفن الوراثة.

(210) المراكشي، الذيل والتكملة، 1/1، ص 363.

(211) المراكشي، الذيل والتكملة، 2/5، ص ص 486-487.

(212) المراكشي، الذيل والتكملة، 2/5، ص ص 508-509.

(213) المراكشي، الذيل والتكملة، 333/6.

(214) المراكشي، الذيل والتكملة، 2/5، ص ص 588-589.

الخاتمة :

إن هذه الدراسة كما ذكر في المقدمة تشمل خمسة قرون من تاريخ الأندلس تم من خلالها التعرف على المصطلحات التعليمية التي كانت سائدة في تلك الفترة. وما قد يلاحظ أن معظم تواريخ وفيات أعلام التعليم الذين شملهم البحث تبدأ بالقرن الثالث الهجري، وربما أدت هذه الملاحظة إلى استنتاج غير دقيق وهو أن مصطلحات التعليم لم تظهر هناك إلا في ذلك القرن.

في الواقع أن حركة التعليم في الأندلس ظهرت قبل القرن الثالث، بل لا بد أنها بدأت مع دخول العرب للأندلس إلا أنه من المحتمل أن مصطلحات التعليم نفسها لم تتأصل وتبدأ بالظهور إلا في ذلك القرن، وهذا على الأقل ما أوحى به مصادر هذه الدراسة.

وقد أصبحت تلك المصطلحات ظاهرة محسوسة في القرن الرابع كما أن ذلك القرن شهد عصر الخليفة الأموي الناصر لدين الله، عبد الرحمن الثالث الذي حكم نصف قرن من الزمان (300-350هـ)، والذي ازدهرت في عصره الحياة العلمية والفكرية وبلغت غاية نضجها في الأندلس. لذلك فالدراسة تبدأ في القرن الثالث وتنتهي بأواسط القرن الثامن الهجري حين أخذت شمس الوجود السياسي والثقافي بمملكة غرناطة بالغروب. ومما يجدر إجماله هنا، هو أن الوظائف التعليمية الرئيسة في الأندلس، ست وظائف، وربما كانت أكثر إلا أننا هنا نتحدث عما أمكن حصره، وهي : التأديب والإسماع والإقراء والتدريس والتعليم والتكثيب.

في الحقيقة يبدو أن هذه الوظائف التعليمية لا تختلف في شيء عما هو معروف لدى المشاركة، فقد عرفوا هذه المصطلحات ذات المدلولات التعليمية، غير أن الاختلاف يكمن في توظيف المصطلح نفسه كالقول في التأديب مثلاً :

«كان يؤدب بالقرآن» و«كان مؤدباً بالقرآن» و«أدب بالقرآن» وكذلك القول : «كان مؤدباً بالعربية» أو «كان يؤدب بالعربية» أو «أدب بالعربية» أو «كان مؤدباً بالنحو» أو القول كذلك : «كان مؤدباً بالحساب والهندسة».

وما يلاحظ على هذا المصطلح «أدب» الذي استخدم في القرآن والعربية وحتى في الهندسة والحساب، أنه لا يستعمل مع علوم معينة كالفقه أو الحديث مثلاً حيث أنا لا نعثر على تعبير : أدب بالفقه أو أدب بالحديث. وما يلاحظ كذلك أن هذا المصطلح أصبح أكثر شيوعاً في القرن الرابع الهجري.

وفي فترة زمنية لاحقة نلاحظ أن مصطلح تأدب بفلان وتفقه بفلان بدأ يظهر بوضوح وهو يعني تعلم على يد فلان أو درس الفقه على يديه.

وكذلك القول في مصطلح «الإسماع» فإننا كثيرا ما نعثر على تعبير «أسمع» وقليلًا ما نجد مصطلح «روى» وهما مصطلحان مقصوران على الحديث دون غيره.

أما في التدريس فكثيراً ما نجد مصطلح : «دَرس الفقه» أو «دَرس النحو واللغة» أو «دَرس العربية» أو «دَرس العربية والآداب» ويلاحظ هنا أن مصطلح التدريس محصور الاستخدام في اللغة وآدابها والفقه ومذاهبه ولا يندرج على بعض العلوم الأخرى كالرياضيات أو الحديث.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق مصطلح «أستاذ» ومصطلح «مُدرس» وهما من المصطلحات التي ربما أخذت بالبروز منذ القرن الخامس الهجري، ولم تكن مقصورة الاستعمال على علماء اللغة أو كبار الفقهاء، بل شملت أحيانا القضاة وحتى بعض مشاهير المكتبيين، بل وحتى بعض النساء أطلق عليهن لقب «أستاذة».

وفي التعليم وجدنا مصطلحات كثيرة الشيوع مثل :

«كان يعلم بالقرآن» أو «عَلِمَ بالقرآن» أو «كان معلماً بالقرآن» والقول كذلك : «عَلِمَ بالعربية» و«يَعْلَمُ بالعربية» أو «كان معلماً بالعربية» ويظهر أن هذه المصطلحات موقوفة على القرآن والعربية دون سواهما، حيث لا نعثر مثلاً على تعبير : عِلْمُ بالرياضيات أو عِلْمُ بالفقه أو عِلْمُ بالحديث.

وكذلك الأمر بالنسبة «للتكتيب» فقد وجدنا نصوصاً كثيرة تتناول بعض أعلام المكتبيين، الذين نجهل الكثير عن طبيعة عملهم.

إلا أنه في القرن السادس الهجري بدأ يظهر مصطلح تكتيب القرآن. كالقول مثلاً «لزم إكتتاب القرآن» أو «أكتب القرآن» وربما أن هذه الوظيفة كانت مستقلة عما سواها من أعمال التكتيب إلا أننا نجهل الكيفية التي تتم بها.

ونختم هذه الدراسة بالقول إنه إذا كانت مصطلحات الإقراء والإسماع والتدريس واضحة الدلالة، فإن مصطلحات التأديب والتعليم وكذلك التكتيب لايزال يكتنفها بعض الغموض وهي في نظر الباحث بحاجة إلى مزيد من الدراسة أملاً في فهمها على الوجه الصحيح.

إلى عموم الباحثين

تتعمد مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنشر البحوث والدراسات في مختلف مجالات الآداب والعلوم الإنسانية، وتسعى في رصد أهم التطورات المستجدة في ميدان البحث، وتستوعب الأبواب التالية :

• دراسات وبحوث أساسية.

• وثائق ونصوص.

• دراسات وعروض بيلوغرافية.

• عروض مختلف الكتب والمجلات.

تسلم جميع المساهمات للمجلة مرقونة، على ألا تتعدى 30 صفحة.

يتسلم صاحب المقال المنشور 30 فصلة من مقاله وسبع نسخ من العدد الذي صدر ضمنه.



مطبعة الجمهورية الإسلامية
القاهرة، الجمهورية العربية السورية

رقم الإيداع بالخزانة العامة 1/1977
الرقم الدولي الموحد : 1160 — 0851